عِصْمَـــــةُ الأَنْبِيَـــاءِ

إثبات العصمة النبوية وتقيد مزاعم أهل الكتاب المجوزين لصدور الكبائر من الأنبياء مع دحض شبهاتهم نقلاً وعقلاً ودلالة

تأليـــــف

أحمد سيد أحمد بنوفري

من علماء الأزهر الشريف

راجعه وصححه

محسن أحم سيد بنوفري

مدرس بالأزهر

الناشـــر

دار السعادة للنشر والتوزيع

١٥ ش عثمان بن عفان – ناهيا البلد – جيزة

ت: ٠١٠٠٥٥٦٨٣٧١ – ٠١١٢٧١٧٦٥٩٧

elsaada.5373@yahoo.com

فهرسة أثناء النشر

العدوى، أحمد سيد بنوفري.

عصمة الأنبياء: / تأليف أحمد سيد بنوفري العدوى، محسن أحمد سيد.

– الجيزة. دار السعادة، ٢٠١٤م ١٦٨ ص؛ ٢٤سم.

تدمك: ٣ ١ ٨٥١٥٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١– الأنبياء (إسلامي)

أ– العنوان ٢٤٢

رقم الإيداع: ٢١٩٨٨ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 978 – 977 – 85152 – 1 – 3

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠١٤م

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الناشـــــر

دار السعادة
للنشر والتوزيع

١٥ ش عثمان بن عفان – ناهيا البلد – جيزة

ت: ٠١٠٠٥٥٦٨٣٧١ – ٠١١٢٧١٧٦٥٩٧

elsaada.5373@yahoo.com

تقديم الناشر

وهذا كتاب آخر للعالم الجليل، الشيخ أحمد سيد بنوفري رحمه الله، ذلك الرجل الذي وهب حياته كلها، علمه وعمله، شبابه وصحته وعمره، للدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف، ومجابهة مؤامرات الكائدين له والمتحفزين، منتهجًا لذلك، كما تشي كل كتبه، أسلوب القوي الواثق الذي يدرك قيمة وقوة ما يزود عنه، وأنه ــ هذا الدين ــ وكما قال صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ــ لا يشاده أحد إلا غلبه.

بالتأكيد ليس الوحيد، وليس أول من جنَّد قلمه من أجل الدفاع عن هذه الرسالة السامية، بل إننا نقول إنه ليس الأوحد أو الأول الذي وهب عمره من أجل هذا، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنه مختلف، نستطيع أن نؤكد، ومن خلال بحثنا بين سطوره وأفكاره، أنه تميز بأمور، قلما اجتمعت لدى آخرين.

فهذا الرجل، وبرغم وضوح وقوة موقفه وتحيزاته، إلا أنه ــ في كل ما كتب ــ نراه يستطيع أن يصل إلى درجة عالية جدًا من الموضوعية في عرض الرأي الآخر مهما كان مختلفًا عن رأيه، إلا أنه كان يعرضه بحججه وأسانيده وكأنه رأيه، ثم يفرغ بعد ذلك للرد عليه وعلى ما حواه.

وكما يوضح هذا قدر الموضوعية لدى هذا العالم الجليل، فإنه يؤكد أيضًا مدى "العقلانية" التي كان ينتهجها في تناوله الموضوع، فكان جل اعتماده على العقل لا النقل، مدركًا أنه قد يخاطب من لا يؤمن أصلاً بالنقل، فكان يأتيه من حيث يعي ويريد.

بالإضافة إلى الموضوعية والعقلانية، فإن من أكثر الأمور التي كان يتميز بها هذا العالم الجيل أيضًا هو "الشمولية"، فها هو في هذا الكتاب، على سبيل المثال، نراه قد اشتمل تقريبًا جميع الرسل والأنبياء المذكورين في القرآن، وأكثر الأنبياء والرسل الذين تعرضوا للأذى سواء من أقوامهم أو من أعدائهم، آمنوا بهم أو لم يفعلوا، مؤمنا وموقنا أن الدفاع عن الأنبياء والرسل هو جزء من الدفاع عن الإسلام الذي يشترط على معتنقيه، أن يؤمنوا بكتبه ورسله، لا يفرق بين أحد من رسله، بل إنه يعد من لا يفعل ذلك بأنه ليس مؤمنًا أصلاً بالإسلام.

أشهر هذا العالم الفارس قلمه ونزل الميدان، يقارعهم الحجة بالحجة والبينة بالبينة، يستخرج مما يحسبونه دلائل على صدق دعاويهم الشواهد على زيفها وتهافتها، متدرعًا بحصن الحقيقة، وشرف أولئك الذين يدافع عنهم، مؤمنًا بعصمتهم ونبلهم.

ويتقدم الفارس، مسددًا الضربة تلو الضربة، هادمًا قلاع الباطل، رافعًا رايات الحق والعصمة فوق كل أرض يحررها من جند الشيطان وباطلهم، محررًا نبي وراء نبي ورسول خلف رسول من أسر الشبهات والضلالات التي عمد أولئك الخاسرون من يضفوها عليهم على مر السنين والقرون،

من خطأ آدم لدعوة نوح ابنه الكافر، لكذبات إبراهيم واستغفاره لأبيه وسؤاله عن إحياء الموتى، لبنات لوط وكيف يعرضهم على الكفار من

قومه، ليوسف وموقفه مع امرأة العزيز، لشكوى أيوب، لقتل موسى للقبطي، وغير ذلك من أكاذيب وغير هؤلاء من أنبياء معصومين .. حتى ينتهي وننتهي معه، في نهاية كتابه، وقد حرر القلوب والعقول من هذه الغشاوات والأكاذيب التي ظن واضعوها أن الزمان أعطاها وجودًا وحولها إلى حقائق مسلم بها.

إنه كتاب، إن قيس بمن يتحدث عنهم وينافح لكان من أعظم الكتب وأقيمها، وإن قيس برسالته النبيلة وهدفه السامي لكان من أهم الكتب وأقواها، وإن قيس بأسلوبه الراقي الموضوعي السلس لكان من أمتع الكتب وأرقاها، وإن قيس بكاتبه العالم الفارس رحمه الله وعمره الذي قضاه في الميدان للدفاع عن دينه غير مبال بقوة العدو أو عتاده، لكان من خير الكتب التي نحسبها كما بقيت لتعلمنا وتمتعنا جيلا وراء جيل ستكون له يوم اقيامة بإذن الله مركبا سهلا يعبر به الصراط المستقيم بإذن الله ليلحق بأولئك الذين نافح عنهم بقلمه حتى يستطيع أن يسألهم: هل أحسنت؟

الناشـــــر

المؤلف في سطور

بينما كانت البلاد تموج بالأحداث الصاخبة، وكانت الحركة الوطنية في أوج توهجها، وتحديدًا في عام ١٩٢٧، ووفاة الزعيم سعد زغلول وظهور مصطفى النحاس قائدًا لحزب الوفد وللحركة الوطنية بشكل عام، وفي يوم الخامس والعشرين من أبريل، ذلك اليوم الذي صار بعد أكثر من نصف قرن من الزمان موعدًا لمناسبة وطنية عزيزة هي عودة سيناء إلى أرض الوطن، وفي حي "الدرب الأحمر" القاهري العريق، كانت البداية .. وكان الميلاد .. ميلاد "أحمد" .. أحمد سيد بنوفري "العدوي"، نسبة إلى قرية "بني عدي" بمحافظة أسيوط بصعيد مصر.

وفي سن العشر سنوات، كان الطفل "أحمد" قد استطاع حفظ القرآن الكريم كاملاً، مما أهله للالتحاق بالأزهر الشريف، ويستطيع الحصول على الابتدائية الأزهرية عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ م، ثم الثانوية الأزهرية عام ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م، ثم يحصل على "العالية" من كلية الشريعة عام ١٣٧٤ - ١٩٥٥م، ثم "الإجازة العالية" (الماجستير) من كلية اللغة العربية بعد عام واحد فقط، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.

وبعد سنين أخرى قضاها في البحث والتدوين، وحبًّا منه في العلم، وإيمانًا بوجوب طلبه من المهد إلى اللحد، كما أمر بذلك نبينا الكريم، تقدم للحصول على دبلوم في التربية من كلية التربية جامعة الأزهر، وحصل عليه بالفعل عام ١٩٧٤م.

وعين مدرسًا وإمامًا وخطيبًا بالأوقاف، ثم واعظًا بالقوات الجوية في الجيش المصري، وهو العمل الذي كان يعتز به كثيرًا حتى إنه كان يتعمد وضع هذه الصفة على أغلفة كل مؤلفاته.

وعمل أيضًا متحدثًا بإذاعة القرآن الكريم، وله ٩٠ حلقة في برنامج «لغة القرآن الكريم».

وكان مدير عام لمسجد الإمام الشافعي.

وتمر السنون دون أن يكف عقله أو يتوقف قلمه .. حتى جاء أمر الله، وكما كانت البداية عام ١٩٢٧ في صخب الحركة الوطنية، جاءت النهاية أيضًا في خضم الأزمات العربية، حيث شاء الله أن يسلم روحه الطاهرة يوم ٤ أغسطس عام ١٩٩٠م، بعد يومين فقط من غزو العراق للكويت، وبعد حياة حافلة عامرة أوقفها للدفاع بقلمه وعقله ولسانه عن دين الله الحنيف.

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

تقديم خاص
للشيخ محسن أحمد بنوفري
نجل المؤلف الشيخ أحمد سيد بنوفري رحمه الله

أقدم لكم الآن، أيها القراء الأجلاء، بعضًا من "ميراثي" الأغلى، أشعر مع كل كلمة أقرؤها وكأنني أسمع فيها صوته يلقنني إياها معلمًا ومرشدًا .. وأبًا.

مع كل صفحة أقلبها، ألمح فيها بسمته الحانية، وقسمات وجهه الطيب، بتجاعيده التي تركتها السنون شهادة على رحلة حياته التي عركها، والتي استطاع أن يخرج منها منتصرًا، تاركًا لنا هذه "الغنائم" الغالية من العلم الغزير.

بالفعل .. هذه الورقات النفيسة وما تحمله من درر، هي ميراثي الأغلى والأهم والأقيم، هي كنزي الأثير الذي تركه لي "أبي" قبل أن يغادر عالمنا هذا بجسده.

كنت دائمًا ما أحب أن أجلس إليه وأنهل من معين علمه، لكني مهما كنت آخذ منه كنت أشعر أن لديه المزيد، ومهما اغترفت من علمه لا أكتفي .. وحينما غادرنا، ورغم أنه لم يترك لنا من متاع الدنيا الكثير، إلا أني أدركت كم كان ثريًّا هذا الرجل.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم، بجزأيه، يشهد بالفعل على ما أقول، وهو ــ بكل ما يحويه ــ قليل من كثير، دليل على ما كان دائمًا يستشعره ويصرح به على الدوام، أمانة العلم ومسئولية الكلمة، فهو في هذه

الصفحات، وكما ستطَّلعون، سخَّر قلمه للدفاع عن شبهات وافتراءات موجهة، منذ الأزل، لخير عباد الله، أنبيائه عليهم صلوات الله وسلامه، وكذلك لخير الخلق، نبينا المصطفى ﷺ.

ورغم أن الكثيرين على مر العصور سبقوه لمناقشة هذه الافتراءات والرد عليها، إلا أنه ــ وللحق ــ تجاوز معظم سابقيه، إذ تميز ــ أولاً ــ بالشمول، فلم يترك نبيًا ولا رسولاً تعرض للافتراءات، منذ قديم الأزل حينما عبثوا في كتبهم السماوية وحمَّلوها ما لا تطيق ولا يليق، وحتى لحظة كتابة أوراقه.

وتميز كذلك بالعقلانية الشديدة، ومناقشة الحجة بالحجة، والفكرة والفكرة، دون الاعتماد كثيرًا على "النقل"، مركزًا حديثه لمخاطبة العقل والفكر والوجدان.

كثير هو الكلام الذي أريد أن أقوله في هذا الكتاب، وأكثر منه ما أريد قوله في كاتبه، ولكن كما يقال "شهادتي مجروحة"، لذا أدعكم تتعرفون بأنفسكم على هذا العالم القدير رحمه الله، متطلّعين وشاهدين على علمه الغزير، سائلاً إياكم الدعاء لهذا الرجل الذي لم ينقطع عمله بموته، إذ ها هو قد ترك "علمًا ينتفع به"، راجيًا الله أن أكون "ولدًا صالحًا يدعو له".

محسن أحمد سيد بنوفري

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدًا لمن اجتبى من صفوة عباده ما يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، ويهدي بهم كل ضال وحائر، ونصبهم دعاة لشريعته وحياة لدينه وحجة عليهم إن هم خالفوا أمر الخالق ولم يتجنبوا نهيه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عصم أنبياء من المعاصي، وصانهم من النقائص، وطبعهم على كريم الخصال وجميل الفعال.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، ختم به الرسل والمرسلات.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، أئمة الهدي ومصابيح الدجي.

أما بعد، فهذا كتابي الجزء الأول «عصمة الأنبياء»، تناولت فيه بالبحث والتحليل الموضوعات والقضايا المتعلقة بعصمة الأنبياء خاصة ما جاء على ألسنة أهل الكتاب والمستشرقين، وما عصمت به كتبهم من الطعون والمفتريات والروايات المختلقة التي نسبوها إلى رسل الله تعالى دون مراعاة لحرمتهم أو احترام لمكانتهم أو تقدير لنبوتهم.

أما الجزء الثاني من «عصمة الأنبياء» فهو بحث خاص أفردته بعصمة النبي محمد ﷺ، وذلك لأن الله تعالى ختم به الأنبياء المرسلين، والكلام فيه كثير؛ حيث تألبت عليه أئمة الكفر وناصبته العداء وحاكت

حوله من الشبهات ليشككوا المسلمين في عقائدهم، بل وفي كل ما جاء هم به من أمور الدنيا والآخرة.

ولما كان هذا البحث دقيقًا يحتاج إلى جهد كبير وصبر جميل؛ ترددت فترة طويلة من الوقت في تأليفه وإخراجه.

وأخيرًا استخرت الله تعالى كعادتي في كل أمر ذي بال؛ فشرح الله لي صدري ويسر لي أمري، فوجدت فتوحًا ربانيًا وتوجيهًا إلهيًّا في جمع شتاته والعثور على شوارده وحصر شبهات العارفين الضالين؛ فكشفت غوامضها وأبنت رموزها، ورددت عليها بما يمحقها ويمحوها، نقلاً وعقلاً بأسلوب سهل وعبارة واضحة، لا خفاء فيها ولا غموض.

وقد قصدت بعملي هذا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته وشفاعة أنبيائه ورسله.

والله أسأل أن ينفع به المسلمين، وأن يهدي به الضالين، كما أسأله تعالى أن يغفر لي أخطائي وتقصيري فيما أكون قد أخطأت فيه أو قصرت؛ إذ الكمال لله وحده.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]

القاهرة في غرة صفر سنة ١٣٩٠ هـ.

الموافق السابع من أبريل سنة ١٩٧٠ م.

كتبه الفقير إلى عفو ربه تعالى

أحمد سيد أحمد بنوفري

من علماء الأزهر الشريف

تمهيد

جرت عادة الملوك والرؤساء أنهم لا يختارون للأمور الخطيرة والمهام الجسيمة إلا من توافرت فيهم صفات خاصة تمكنهم من القيام بأعبائها وتحمل مسئولياتها، إذ لا يتحقق ذلك في جميع أفراد البشر لاختلافهم في طباعهم وسماتهم وأخلاقهم، ولما كانت الرسالة في منزلة لا تعلوها منزلة، وفي مقام لا يدانيه مقام؛ إذ هي تحويل لأفكار الناس وتغيير لمجرى حياتهم، ونبذ ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من معبودات ومعتقدات امتزجت بها أرواحهم إلى عبادة إله واحد له ما في السموات وما في الأرض.

لذلك كان لا يختار لهذه الوظيفة إلا من سمت نفسه وصفت روحه وتخلص من الكدورات البشرية وأشرق قلبه بالأنوار القدسية، هذا بالإضافة إلى العناية الإلهية التي تسدد خطاه وتصونه من الوقوع فيما يشينه ويحط من قدره، وشتان ما بين اختيار الخالق واختيار المخلوق، وبين من يُصطفَى ليبلغ عن شريعة ربه، وبين من يكلَّف بأمر من أمور الدنيا.

فاصطفاء الخالق لا يخطئ أبدًا لإحاطة علمه بكل شيء، واختيار المخلوق يخطئ ويصيب لعجزه وقصور علمه، وأن من يقوم بالدعوة إلى الله قد أُعِدَّ إعدادًا إليها يعصمه من الزلل، ويكفل نجاحه فيما أُمِر بتبليغه.

والقائم بأمور الدنيا إخفاقه وسقوط منزلته لا يرتب كثير ضرر، بخلاف الرسول؛ إذ الهفوة في حقه كبيرة تقدح فيه وفي رسالته، وتؤدي إلى نفرة الناس منه.

لهذا كان الرسل معصومين من كل ما يلحق بهم شيئًا أو يعوق نشر دعوتهم، قال السيد محمد رشيد رضا[1]، ومن العجيب أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يقولون بعصمة الأنبياء، بل ينسبون إليهم ما يتنافى ومقام الرسالة ومنزلة النبوة، وكتبهم التي يدينون بها ترميهم بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة المناقضة لأهداف الرسالة الداعية إلى نفرة الناس منهم وبُعدهم عنهم.

والنصارى يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهي أن السيد المسيح عليه السلام هو المعصوم وحده لأنه إله أو ابن إله ــ كما يقولون ــ ولأنه هو المخلّص للبشر من العقاب الأخروى على الخطيئة اللازبة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع لهم؛ لأن المخطئ لا يخلّص المخطئين وهو منهم. وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية.

بيد أن كتب العهدين القديم والجديد المقدسة عندهم المحرفة في اعتقادنا لا تشهد لهم برمي جميع الأنبياء بالخطايا؛ فإن يوحنا المعمدان

[1] – الوحي المحمدي جـ١.

(يحيى بن زكريا عليهما السلام) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم بما يدل على أنه كان أعظم من المسيح في عصمته.

ففي إنجيل لوقا (١: ٦٥) «أنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، وفي بطن أمه يمتلئ بروح القدس».

وقال السيد المسيح (١: ١١ – متى): «الحق أقول لكم إنه لم يقم بين المولدين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان).

وهنالك أنبياء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القديم بالبر، ولم ينسب إلى أحد منهم أدنى خطيئة.

والقرآن الكريم الذي ندين به قد شهد لجميع المرسلين بالعصمة، وأنهم كانوا على مثال عظيم من الصلاح والتقوى، يقتدى بهم ويهتدى بهديهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

آراء العلماء

في عصمة الأنبياء

وضبط القول في هذه المسألة أن يقال إن الاختلاف فيه يرجع إلى أربعة أقسام:

أحدها- ما يقع في باب الاعتقاد.

ثانيها- ما يقع في باب التبليغ.

ثالثها- ما يقع في باب الأحكام والفتيا.

رابعهما- ما يتعلق بأفعالهم وسيرتهم.

القسم الأول:

أما عن القسم الأول، وهو ما يقع في باب الاعتقاد، وهو "اعتقاد الأنبياء الكفر"، فإن ذلك غير جائز مطلقًا إن لم يكن مستحيلاً عقلاً عند جمهور الأمة.

وليس من العقل أن يرسل الله لتبليغ دعوته من لا يستطيع أداءها فضلاً عن كفره وضلاله؛ إذ الحكمة في إرسال الرسل هداية الناس إلى التوحيد وإرشادهم إلى سبل الخير، فكيف يكون الحال لو ارتد الرسول عن عقيدته؟ فإن البلاء يكون أشد حيث يكثر الفساد ويتعادى الناس في الشرك؛ وبذلك تنعكس الآية وتضيع الحكمة من إرساله.

وأيضًا يلزم عليه أن الله سبحانه وتعالى يختار لأمر يريده من لا يعلم صلاحيته له، وهذا محال، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولم يثبت في تاريخ الأنبياء المرسلين أن نبيًا مرسلاً قصَّر في تبليغ ما أمر به، فضلاً عن كفره أو عصيانه.

القسم الثاني:

وأما عن القسم الثاني، وهو ما يقع في باب التبليغ؛ فقد أجمع علماء المسلمين على عصمتهم من الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ، وكما لا يقع منهم ذلك على سبيل العمد كذلك لا يقع منهم السهو والنسيان في تبليغ الأحكام، وما يجري القول من الفعل الذي قصد به تعليم الأمة، فالأنبياء معصومون منه أيضًا بالإجماع.

أما الأقوال التي لم يقصد بها تبليغ الأحكام والأفعال التي لم يقصد بها تعليم الأمة فيجوز عليهم السهو والنسيان عند جمهور العلماء، مستدلين بما حصل من المصطفى ﷺ من صلاته الظهر خمسًا، ومن تركه التشهد الأول في صلاة الظهر، ويقول ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني**».

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقع منه ﷺ سهو ولا نسيان أصلاً، وأجابوا عما وقع منه من نسيانه ﷺ بأنه كان عمدًا منه ليبين للناس حكم السهو في الصلاة؛ لأن بيان الأحكام بالفعل أقوى عن بيانها بالقول.

القسم الثالث:

وأما عن القسم الثالث، وهو ما يتعلق بالفتيا، فأجمع العلماء على أنه لا يجوز خطؤهم على سبيل العمد، وإلا لأخل بأداء رسالتهم وأوقع الناس في الشك في أمرهم.

وأما على سبيل السهو فقد أباه جماعة من العلماء وهو الصحيح؛ لأن الرسول ﷺ ما ينطق عن الهوى، لأن كل ما يصدر عنه من فتيا وأحكام وحي موحى به إليه من قبل الله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ــ ٤].

وجوَّز البعض الخطأ في الاجتهاد، واستدلوا بالأدلة الآتية:

أولها- قوله تعالى في أسارى بدر حين فاداهم النبي ﷺ من الأسر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، فلولا أنه أخطأ في هذا الحكم لما عوتب.

ثانيها- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

القصة

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد: حدثنا خليفة عن ابن عباس قال:

قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاة معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود؛ فدعاه فقال: كيف تقي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها.

الرد على أدلة القائلين بجواز الخطأ في الاجتهاد

الرد على الدليل الأول:

إن الآيـــة ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] محمولة على ترك الأولَى، وسنعرض لهذه الآتية بالتفصيل في موضعها عند الحديث على الشبهات التي أوردها المستشـــرقون فـــي حق النبي محمد ﷺ.

الرد على الدليل الثاني:

ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن داود عليه السلام قد قـــدر الضرر بالكرم فكان مساويًا بقيمة الغنم، فكان عنده أن الوجب في ذلـــك الضرر أنه يزال بمثله من النفع، فلا جرم أن سلم الغنم إلى المجني عليه كما قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه في العهد: إذا جنى على الـــنفس يدفعه المولى ثمنًا لجنايته أو يفديه.

وأما حكم سيدنا سليمان عليه السلام فإن اجتهاده أدى إلى أنـــه يجـــب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائز؛ لأنه يقتضي الحيف والجور، ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم، فحكم به كما قال الإمام الشافعي رضـــي الله عنه فيمن غصب عبدًا فأبق من يده، فإنه يضـــمن القيمـــة لينتفـــع بهـــا المغصوب منه جزاء ما فوّته عليه الغاصب من منافع العبد، فإذا أظهـــر العبد ترادًّا.

حكم هذه الواقعة – لو حدثت – في شرعنا

قال الحسن البصري رضي الله عنه: هذه الآية ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنعام: ٧٨] محكمة، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة.

وأعلم أن كثيرًا من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع، وذلك للعمل بحكم سليمان وإلغاء حكم داود؛ إذ لو لم يكن منسوخًا لبقي.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: إن اعتدتْ الماشية على الزرع نهارًا فلا ضمان على صاحبها؛ لأن حفظ الزرع نهارًا على صاحبه، وإن كان ليلاً فالضمان على صاحب الماشية؛ لأن حفظها بالليل عليه.

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه، لا ضمان عليه ليلاً ولا نهارًا إذا لم يكن متعديًا بإرسال الغنم إلى الزرع لقوله ﷺ: «جرح العجماء جبار»، أي لا ضمان فيه واحتج الإمام الشافعي بقوله ما روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: كانت ناقة ضاربة قد دخلت حائطًا، أي بستانًا، فأفسدته، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقضى أن حفظ الحوائط (البساتين) بالنهار على أهلها، وإن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وإن على أصحاب الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا إتمام القول في هذه الآية الكريمة».

وروي أن إياس بن معاوية: لما استقضى أتاه الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاء رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو فى بالنار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري رضي الله عنه: إن فيما قضى الله تعالى من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكمًا يرد على قول هؤلاء الناس، قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . إلخ﴾؛ فأثنى الله تعالى على سليمان ولم يذم داود، حيث قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنعام: ٧٩].

ويعني الحسن بذلك أن الله تعالى اتخذ على الحكام ثلاثًا:

ألا يشتروا به ثمنًا قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشَون فيه أحدًا.

قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]،

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٤٤]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قال ابن كثير: الأنبياء عليهم السلام كلهم معصومون مؤيدون من الله تعالى، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المدققين من السلف والخلف.

وأما من سواهم من البشر فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمر بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»، فهذا الحديث يرُد نصًّا توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار.

وفي السنن: «**القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار، رجل على الحق، وقضى به فهو في الجنة ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار**».

القسم الرابع:

أما القسم الرابع، وهو ما يتعلق بأفعال الأنبياء، فمن المعلوم بداهة والثابت عقلاً ودلالة أن الرسل دعاة خير ومصابيح هداية، ولهذا أمرنا الله تعالى باتباعهم والاهتداء بهديهم، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وإذا كان الأمر كذلك فلا يصدر منهم إلا كل قول جميل وفعل حميد، ولا يتصور منهم الإنسان لغوًا ولا لفظًا ولا جهرًا بسوء ولا مخالفة لأمر من أوامر الله أو ارتكابًا لمعصية أو محظور قط، وغير ذلك مما يجوز وقوعه من غير الأنبياء، وقد ذكر العلماء خمسة أقوال تتعلق بأفعال الأنبياء، وأرجحها عندي أنه يستحيل أن تقع منهم الكبيرة لا على جهة العمد أو النسيان، وأما الصغيرة فيجوز أن تقع لا على جهة العمد، بل على جهة التأويل، وهو قول أبي علي الجبائى.

آراء العلماء فى وقت العصمة
ما يقوله العلماء في وقت عصمة الأنبياء

المختار من الأقوال الواردة في هذه المسألة أنه لم يصدر منهم الذنب حال النبوة البتة، لا الكبيرة ولا الصغيرة، ويدل عليه من وجوه:

أحدها- لو صدر الذنب منهم لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة، وذلك غير جائز.

بيان الملازمة أن درجة الأنبياء في غاية الجلال والشرف، وكل من كان كذلك كان صدور الذنب عنه أقبح، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

والمُحصَن يُرجم وغيره يُحد، وحد العبد نصف حد الحر.

وأما أنه لا يجوز أن يكون النبي أقل حالاً من سائر أفراد الأمة فذلك بالإجماع.

ثانيهما- أن بتقدير إقدامه على الفسق وجب ألا يكون مقبول الشهادة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، لكنه مقبول الشهادة، وإلا كان أقل حالاً من عدول الأمة، وكيف لا نقول ذلك وأنه لا معنى للنبوة والرسالة إلا أنه يشهد بأن الله شرع هذا الحكم

وذلك وأمر بهذا ونهى عن ذاك؟ وأيضًا فهو يوم القيامة شاهد على الكل لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثالثهما- وبتقدير إقدامه على الكبيرة، يجب زجره عليها، فلم يكن إيذاؤه محرمًا لأنه مجرَّم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

رابعهما- إن سيدنا محمدًا ﷺ لو أتى بالمعصية لوجب علينا الاقتداء به؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي...﴾[آل عمران: ٣١]، فيفضي إلى الجمع بين الحرمة والوجوب، وهو محال.

وإذا ثبت ذلك في حق النبي محمد ﷺ، ثبت أيضًا في حق سائر الأنبياء ضرورة، ولا قائل بالفرق بينهم، قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

خامسهما- إننا نعلم بداهة أنه لا شيء أقبح من نبي رفع الله قدره وأتمنه على وحيه وجعله خليفة في خلقه يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا، فيقدم عليه ترجيًا للذَّته، وغير ملتفت إلى نهي ربه ولا منزجر بوعيده، هذا معلوم القبح ضرورة.

سادسهما- إنه لو صدرت المعصية من الرسل لكانوا مستحقين للعذاب لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وأجمعت الأمة المحمدية على أن أحدًا من الأنبياء المرسلين لم يكن مستحقًا للعن ولا للعذاب؛ فثبت عدم صدور المعصية عنهم.

سابعهما- إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله، فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، فإذا كان هذا لا يليق بعالم من علماء المسلمين، فكيف يجوز أن ينسب إلى الأنبياء عليهم السلام؟!

هذا بالنسبة إلى حال النبوة، أما قبل النبوة فإن سبحانه وتعالى الذي اجتباهم في علمه الأزلي قد أعدهم منذ ولادتهم إعدادًا خاصًّا يؤهلهم لحمل أعباء الرسالة التي سيكلفون بها في مستقبل أيامهم.

وحسبنا دليلاً على هذا ما كان عليه الرسول ﷺ منذ حداثته من خُلق عظيم وسلوك رفيع وسيرة طيبة بين آله وجيرانه وعارفيه، وهذه الصفات الكريمة التي لازمت الرسول ﷺ قبل الرسالة واشتهر أمره بها بين العرب كان لها اكبر الأثر في نشر رسالته وقبول دعوته ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

ولنذكر أولاً بإيجاز الشبهات التي آثارها المجوزون لصدور الكبيرة من الأنبياء، ثم نتولى الرد عليها بالأجوبة المعتمدة.

وهذه هي شبهاتهم التي أثاروها حول قصة سيدنا آدم عليه السلام.

• الشبهة الأولى:

إن آدم عليه السلام كان عاصيًا، لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

واستدلوا على أن العاصي صاحب كبيرة لوجهين:

الأول- إن النص يقتضي كونه معاقَبًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا هذا.

الثاني- إن العاصي اسم ذم، فوجب أن يتناوله لأنه عصى.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فجعل الغي مقابلاً للرشد.

• الشبهة الثالثة:

إنه تائب، والتائب قد أذنب، لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٢]،

وكان التائب مذنبًا؛ لأن التائب هو النادم على فعل الذنب، فجوز عن كونه فاعلاً للذنب، فإن كذب في ذلك الإخبار فهو مذنب بالكتاب، وإن صدق فيه فهو المطلوب.

• **الشبهة الرابعة:**

إنه ارتكب المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وارتكاب المنهي عنه ذنب.

• **الشبهة الخامسة:**

سماه الله ظالمًا في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وهو سمى نفسه ظالما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، والظالم ملعون لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ومن استحق اللعن كان صاحب الكبيرة.

• **الشبهة السادسة:**

إنه اعترف بأن لولا مغفرة الله إياه لكان خاسرًا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وذلك يقتضي كونه صاحب الكبيرة.

• **الشبهة السابعة:**

إنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان، وإذا الأدلة على ما أقدم عليه من طاعة الشيطان، وذلك يدل على كونه صاحب الكبيرة.

ثم قالوا: هب أن كل واحد من هذه الوجوه لا يدل على كونه فاعلاً للكبيرة، لكن مجموعها لا شك في كونه قاطعًا في الدلالة عليه.

الأجوبة على الشبهات السابقة

والجواب المعتمَد عما سبق نقول لهم إن كلامكم أنما يتم لو أتيتم بالدلالة على أن ذلك كان بعد النبوة، وذلك ممنوع، فلِمَ لا يجوز أن آدم عليه السلام حال ما صدرت عنه هذه الزلة ما كان نبيًّا.

وعلى فرض صدق ذلك الفعل من آدم عليه السلام بعد النبوة، فإقدامه عليه إما أن يكون ذلك على سبيل النسيان، وإنما اعتبر نسيانه خطيئة لأنه لما كان ليس كأحد من الناس، وكان التنبه والحذر من مخالفة الله تعالى لازمًا له؛ كان إذا نهى عن ذلك خطيئة في حقه، وإن كان غير خطيئة إذا صدر من غيره من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أو تأول فيما فعل، إذ فهم أن الأمر والنهي ليسا جازمين، بحيث لا يترتب على المخالف المجازاة، بل فهمه أمر إرشاد فقط أو نهي إرشاد، وما كان من هذا القبيل لا يحرم مخالفته، كما حل الفقهاء الأمر بكتابه الدين في قوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، على أنه أمر إرشاد، وأمر الإرشاد لا إثم في تركه.

أو أن آدم عليه السلام تأول في أكله من الشجرة؛ لأن الله تعالى أراه الشجرة التي نهاه عن الأكل منها فتأول أنه نهاه عن عينها ولم ينهه عن جنسها؛ فأكل من شجرة أخرى من جنسها.

والظالم الملعون في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١١٨]، المراد بهم الكفار.

وأما قول آدم: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» [الأعراف: ٢٣]، تذلل وخضوع وشعور بالتقصير رجاء أن ينال رضا مولاه.

وأما تسمية الله تعالى له بكونه ظالمًا لأنه ظلم نفسه بخروجه من دار المكرمات إلى دار التكاليف والابتلاء.

قصة نوح عليه السلام

نوح عليه السلام

نوح عليه السلام هو النبي الثاني بعد آدم عليه السلام، والأول بعده هو إدريس عليه السلام، وهو (نوح) أول الرسل، كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم: «**يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض...**».

ومن قال: "رسالة آدم وإدريس عليهما الصلاة والسلام..." يؤول هذا الحديث.

ولم يمكث رسول من الرسل بدعوة قوم إلى التوحيد أكثر من سيدنا نوح عليه السلام؛ إذ بلغت مدة إقامته بينهم خمسين وتسعمائة سنة، بنص القرآن الكريم، وهو لا يألو جهدًا في نصحهم وإرشادهم تارة، وإنذارهم وتخويفهم تارة أخرى، ولما لم يجد لدعوته صدى في نفوسهم سأل مولاه أن يستأصلهم بالعذاب ولا يجعل لهم من بعدهم عقبًا؛ وذلك بعد أن أعلمه الله بأنه لا خير يرجى منهم، كما لا خير يرجى من نسلهم، وبهذا اعرف سر دعائه على قومه.

وقد أوضح القرآن الكريم موقفه مع قومه من ترفقه بهم مع عنادهم له واستهزائهم به وإصرارهم على كفرهم وتمسكهم بعقيدة الشرك.

قال الله تعالى حاكيًا عن نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وأما عدم إيمانهم فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جاء هذا من عند الله دعا على قومه، قال تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ــ ٢٧].

آراء العلماء في قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ابنه﴾

اختلف العلماء في أنه هل كان ابنه حقيقة، وفيه قولان:

الرأي الأول:

وهو الصحيح، أنه ابنه في الحقيقة بدلالة نص القرآن الكريم عليه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢]، وصرّف هذا اللفظ الصريح إلى أنه رباه فأطلق عليه اسم «الابن»، لهذا السبب صرف الكلام عن حقيقته إلى مجازة من غير ضرورة، وأنه لا يجوز، والذين أولوا هذا الظاهر استبعدوا أن يكون ابن الرسول المعصوم كافرًا، مع أنه لا غرابة في هذا ولا ضرر على الرسول ولا على الرسالة في كون الوالد أو الولد كافرًا أو عاصيًا، فالمعتبر عصمة الرسول فحسب، ولا عبرة بمن عداه.

ومع هذا نقول إن والد سيدنا إبراهيم عليه السلام كان كافرًا، ومع هذا لم ينقص من قدره شيئًا ولم يكن له أثر في رسالته.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ــ ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

الرأي الثاني:

أنه ولد على فراشه لغير رشدة.

واحتج القائلون بهذا الرأي بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠]، وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة، لا سيما وهو على خلاف نص القرآن.

أما قوله تعالى: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾، فليس فيه بأن تلك الخيانة حصلت بسبب الزنا.

قيل لابن عباس رضي الله عنه: ما كانت تلك الخيانة؟

فقال: كانت امرأة نوح تقول زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفانه إذا تنزلوا بساحته فيفعلوا فيهم الفاحشة.

والدليل القاطع على فساد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦].

ومن قال إن امرأته كانت كافرة وليس بعد الكفر ذنب فلا مانع أن يكون ولدها من الزنا، فنقول إن ضرر كفرها عائد عليها ولا معرة عليه في ذلك، بخلاف جريمة الزنا؛ فإن ضررها يمس ذاته الشريفة وينال من هيبته وقداسته ونبوته ورسالته.

كيف نادى نوح ابنه مع كفره وبعد أن حلَّ به العذاب؟

وقد أجاب العلامة الفخر الرازي بالأجوبة الآتية:

الجواب الأول:

إنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، لكنه ظن أنه لما شاهد الهلاك والأهوال العظيمة، وأنه لا مناص له من الموت فإنه يقبل الإيمان، فصار قوله: «**يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا**»، كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان، وتأكد هذا بقوله: «**وَلا تَكُن مَعَ الكَافِرِينَ**» [هود: ٤٢]، أي تابعًا لهم في الكفر، واركب مع المؤمنين، أي تابعًا لهم.

الجواب الثاني:

إنه كان ينافق أباه ويتظاهر أمامه بالإيمان وبتصديقه فيما يأمرهم به؛ فظن أنه مؤمن، فلذلك ناداه، ولولا ذلك لما أحب نجاته.

الجواب الثالث:

إن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء.

هذا بالإضافة إلى أن الله وعده بنجاته ونجاة أهله؛ فظن أن ابنه داخل في جملة الأهل؛ فأخبره مولاه أن المراد بأهله من كانوا على دينه، أما من كان خارجًا عنها فليس من أهله.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٥ ــ ٤٦].

شبهات، والرد عليها

احتج القادحون في عصمة الأنبياء والمجوزون لصدور الذنب منهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وذلك من وجوه:

الأول- إن قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾، يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

الثاني- قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، يدل على أن ذلك السؤال كان محض الجهل، وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر، وأيضًا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن الكريم، قال الله تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

الثالث- إن نوحًا عليه السلام اعترف بإقدامه على المعصية في هذا المقام بقوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنبًا.

هذه هي بعض الوجوه التي ذكرها هؤلاء المفترون على الأنبياء.

وقد رد العلامة الرازي هذه الوجوه بقوله:

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيهه تعالى للأنبياء عن المعاصي وجب حمل تلك الوجوه السابقة على ترك الأفضل وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

مطاعن التوراة في نوح عليه السلام

وهذه فرية أخرى أرادوا أن يصموا بها رسولاً كريمًا دعا قومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، ولقي في سبيل دعوته من الجهد والنصب والعنف والإيذاء ما عجَّل الله لهم بالعقوبة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

ذكر في الباب التاسع من سفر التكوين، فقال في الآية ١٨ وما بعد:

«... إن نوحًا شرب الخمر وسكر وكشف عورته، فرآها ولده الأصغر حام؛ فنزل وأخبر إخوته، فلما علم نوح بذلك دعا على كنعان بن حام، فقال ملعون كنعان، وطلب من الله أن يكون عبدًا لعبيد إخوته».

وهذه أكذوبة من الأكاذيب التي دأب المستشرقون المبشرون أن يلحقوها برسل الله تعالى، وكيف يكون رسولاً ويصدر منه هذا الفعل المحرم المنهي عنه؟ وكيف يُصطفى للرسالة من يرتكب المحظورات ولا يتورع عن الجهر بها؟

على أنه لو صدر من نوح عليه السلام الظلم بدعائه على كنعان وشربه للخمر لعاقبه الله في الدنيا، وذكر ذلك في القرآن الكريم، لكن لم يذكر شيئًا عنه في القرآن الكريم؛ فثبت براءته مما يقولون.

فلهذا السبب حصل العتاب.

الأمر بالاستغفار لا يدل على سابقة الذنب كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ــ ٣].

ومعلوم أن مجيء النصر ودخول الناس في الإسلام جماعات جماعات ليس بذنب يوجب الاستغفار؛ إذ الاستغفار مطلوب من العبد في كل وقت.

قصة هود عليه السلام

هود عليه السلام

نسبه: قيل هود عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوض بن أرم بن سام، وهو الأقرب إلى الصواب.

ويقول أهل حضرموت إن هودًا عليه السلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة "تريم" قرب وادي برهوت.

وأهل فلسطين يدَّعون أنه دُفن عندهم، وقد بنوا له قبرًا، ويعملون له في كل سنة مولدًا يحيون به ذكراه.

وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول؛ لأنها متاخمة لبلاد عاد، وهي الأحقاف دون فلسطين.

وأرسل الله تعالى هودًا إلى قوم عاد[1]، وقد كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، وأخذ هود عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد وينذرهم ويحذرهم بأس الله تعالى، ويضرب لهم المثل بقوم نوح عليه السلام وما حل بهم بعذاب الله وبهلاكهم بالطوفان بسبب عنادهم له وأفكارهم لدعوته، وما زال بهم يدعوهم وهم يعرضون عنه، ثم ترقوا في

[1]- عاد: اسم لأبي القبيلة ومساكنهم في أرض الأحقاف، وهي تقع في شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان.

تحديه.. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، وذلك عندما قال لهم هود عليه السلام: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» [الأحقاف: ٢١].

ولما عتا قومه على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التي أقامها هود على صدق رسالته، ولم تبقَ فائدة في إنذارهم أحل الله بهم نقمته في الدنيا بأن أمسك عنهم المطر حتى جهدوا، وكان كلما نزل الجهد ذكَّرهم هود بدعوته، وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه؛ فكان ذلك يزيدهم عتوًّا، إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم، سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا؛ فأهلكهم الله وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ونجى الله تعالى هودًا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ــ ٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ــ ٤٢].

الشبهات الواردة في حق إبراهيم عليه السلام

الشبهات الواردة في حق إبراهيم عليه السلام

قبل أن أبدا حديثي عن الآيات التي هي موضوع البحث رأيت أن من المناسب أن اذكر تلك المناظرة التي دار حوارها بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملك كما يصورها القرآن الكريم؛ وذلك لكي يظهر لنا بوضوح مدى إيمان سيدنا إبراهيم بربه ويقينه الذي يغمر قلبه في أن كل ما في الكون من آثار صنعه، وهي أدلة على وجوده؛ وذلك أمر مسلم به لا ريب فيه لأنه رسول موحى إليه من رب العالمين، أليس هو محطم الأصنام؟ أليس هو القائل في محاجاته للملك: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» [البقرة: ٢٥٨].

فإبراهيم عليه السلام عرف ربه بصفاته وآثاره حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ــ ٨٢].

المناظرة التي وقعت بين إبراهيم والملك

قال الله تعالى حاكيًا عما دار بين خليله إبراهيم عليه السلام وبين الملك الكافر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والخطاب في الآية الكريمة للنبي محمد ﷺ: ألم ترَ بقلبك يا محمد الذي جادل إبراهيم في وجودي وتمادى في إنكاره وعناده أن يكون ثَم إله غيره كما قال بعده فرعون لقومه "ما علمت لكم من إله غيري"، وما حمله على هذا الطغيان إلا تجبُّره وطول مدته في الملك – كما قيل إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه.

وكان من عمى بصيرة الملك طلبه من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الله، فأجابه إبراهيم عليه السلام بأمور مشاهدة تدل دلالة قاطعة على وجود الفاعل المختار ضرورة أن الوجود والعدم لم يحدثا بنفسيهما، بل لهما موجد قادر أوجدهما.

فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ولكن النمرود لم يقنع بهذا الاستدلال، وحاول أن يثبت لنفسه هذا المقام وتلك القدرة التي يتصف بها إله إبراهيم فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد، إنه أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فقتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلم يقتل، فهذا معنى الإحياء والإماتة في نظره*.

ودليله واهٍ يخالف الحقيقة؛ لأن الموت إزهاق الروح بعد الحياة، والإحياء هو الإيجاد بعد العدم، ولأنه ليس جوابًا لإبراهيم ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، كما لا يستشف منه أدنى شيء في نسبة الإلوهية إليه، إذ أن ذلك الذي ادعاه في استطاعة كل من كان له ملك أو سلطان، ويلزم عليه تعدد الإلهة، وهذا غاية بطلان دليله.

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام له: إذا كنت تدَّعي أنك تُحيي وتُميت فالذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وتسييرها في حركات منتظمة في غاية الإبداع والإتقان، فهذه الشمس تطلع كل يوم من مشرقها، فإن كنت إلهًا حقًا ولك قدرة على

* في تفسير هذه القصة يذكر الباحث المتدبر د. عماد بابكر في كتابه «آذان الأنعام» نظرية أحدث وأقرب إلى المنطق، علمًا بأن قصة الرجلين اللذين أمر بالعفو عن أحدهما مصدرها الإسرائيليات ولم يأتِ بها نص قرآني أو نبوي. والنظرية الأحدث والأولى بالشيوع والانتشار تقول إن الرجل الثاني لم يكن سجينًا محكومًا عليه بالإعدام، إنما كان مريضًا مستلقي في "غيبوبة"، حتى يحسبه آل هذه العصور القديمة ميتًا، وبوصفة طبية كان يملكها هذا الملك أحدثت له الإفاقة، وهي ما وصفه الملك بقوله "أنا أحيي الموتى".

يدعم هذه النظرية، بالإضافة لكونها أكثر منطقية ومعقولية، وكما لفت بابكر في كتابه، أن إبراهيم عليه السلام سأل الله بعدها مباشرة قائلاً: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى»، وذلك بعد ما هز "اطمئنان" قلبه ما فعله هذا الملك.. الناشر.

التصرف فأت بها من المغرب دليلاً على صدق دعواك، ولكن هيهات هيهات لمخلوق لا حول له ولا قوة في تصريف أموره. قال إبراهيم: «فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [البقرة: ٢٥٨].

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويبين بطلان ما ادعاه النمروذ في الأول والثاني.

وبهذا يتبيَّن لنا بوضوح إيمان سيدنا إبراهيم عليه السلام العميق ووثوقه بقدرة ربه، ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] ا.هـ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذه الآية الكريمة قائمة على إقرار مرتبتين:

أ – مرتبة الإيمان.

ب مرتبة الاطمئنان.

فسأل الله تعالى خليله إبراهيم: أو لم تؤمن؟ وهو سؤال العارف بأنه آمن، وغايته أن يقر صراحة بالإيمان حتى لا يظن ظان بأنه شاك في أصل القضية.

ويجيب إبراهيم عليه السلام ربه بقوله: ﴿بَلَى، وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ومعناه: بلى، إني لمؤمن، ولكن أريد أن أحصِّن هذا الإيمان عما يراود الجنان فأصل إلى منزلة الاطمئنان.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في شأن طلب الحواريين من إنزال المائدة من السماء: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٣ ــ ١١٥].

فقد علّلوا طلبهم المائدة برغبتهم في الوصول إلى مرتبة الاطمئنان عن طريق المشاهدة لها والأكل منها، والوثوق بصدقه عن طريق تصديق الله إياه بالمعجزة الحسية والشهادة على هذه المعجزة عند من لم يرَها من الناس، فأقرهم سيدنا عيسى عليه السلام على هذا الطب بأن دعا الله تعالى أن يحققه، ثم أقر الله حيث قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥]، أي ليتحقق لكم ما رجوتموه من الاطمئنان بعد الإيمان.

فدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، يطلب لوناً من ألوان التحصين والتأمين حتى ينال الطمأنينة والثقة مما عسى أن يراوده أو يداخله، ولهذا لم يقل في سؤاله: "رب هل تحي الموتى؟"، ولكن قال: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، فإن الأولى سؤال عن أصل القضية، وهو قدرته على الإحياء، وهو أمر مسلم به متقرر في نفس إبراهيم عليه السلام، بل وفي نفس كل مؤمن، أما الثانية فهو سؤال عن كيفية حصول الشيء، وذلك فرع الإيمان به، ومن شأنه أن يقر هذا الإيمان ويزيد في ثباته.

ولذلك ترى القرآن الكريم يلفت أنظار المؤمنين إلى كثير من أسرار هذا العالم، ويرد على ما قد يثيره بعضهم أو يثار لديه من شبهات.. وهكذا.

فالغاية إذن من ذلك كله هو إيمان المؤمنين وتجديد مادة غذائهم حتى لا يصاب إيمانهم بمثل ما تصاب به الأجسام حين يعوزها الغذاء؛ فتضعف هي ثم تضعف مقاومتها تبعًا لضعفها؛ فتهاجمها العلل والأمراض؛ فتجدها سهلة، وليعلم أهل العلم أن الله تعالى أذن لعباده ولو كانوا أنبياء كإبراهيم أو أصحاب أنبياء كالحواريين مثلاً؛ أن يطلبوا ما يثبت به إيمانهم ويُعينهم على ما يحقق غايتهم من الوصول إلى الراحة والاطمئنان النفسي.

ثم نفَّذ إبراهيم عليه السلام أمر ربه؛ فجمع طيور أربعة وذبحها وقطع أجسامها ووزعها على أربعة جبال، ثم دعاها فجاءته تسعى كما كانت حالها قبل الذبح، وبذلك أراه الله تعالى ما طلب رأي العين.

قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد ورد على هذه الآية:

أولاً- إن هذه الرؤية لإحياء الله الموتى كان يمكن تحققها بواحد فقط، فلِمَ كانت الطيور أربعة؟

ثانيًا- إن قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾، بمعنى «أَمْهِلهِنّ»، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، ولو كان المراد بقوله: ﴿فَصُرْهُنّ﴾ فقَطِّعهِنّ، لم يقل «إليك»؛ فإن ذلك لا يتعدى بـ"إلى".

ثالثًا- إن الضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، عائد إلى الطيور لا إلى أجزائها.

رابعًا- من جهة المعنى أن رؤية إبراهيم للطير وهي عائدة من الجبال ليست تحقيقًا لما سأله من أن يريه الكيفية، وإنما أراه الطيور حية، وبين الأمرين فرق.

ولذلك يميل أبو مسلم الأصفهاني إلى أن المعنى: خذ أربعة من الطير فضمها إليك وعودها الأنس بك على الشأن في تدريب الطير والحيوان وتأليفها، ثم اجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءًا، أي واحدًا من أربعتها، ثم ادعها؛ فإنها تسرع إليك، لا يمنعها تفرق أمكنتها وبُعدها من ذلك، فكذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى؛ فإنها تسرع إلى دعوته طوعًا.. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

على رأي مسلم الأصفهاني لا يكون هناك ذبح ولا تقطيع ولا إماتة ولا إحياء، بل لعل إبراهيم عليه السلام لم يأخذ طيورًا حية، ولم يجعلها على جبال أربعة، ولم يدعُها، فإن أبا مسلم يقول: «ليس في الكلام ما يدل على أنه فَعل ذلك، وما كل أمر قُصد به الامتثال؛ فإن من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لا سيما إذا أريد زيادة البيان».

كما إذا سألك سائل كيف تجلد كتابك مثلاً، فتقول خذ كذا وكذا، وافعل به كذا كذا؛ يكون كتابك مجلدًا، تريد كيفية التجليد، ولا تعني تكليفه بتجليد الكتاب بالفعل.

وعلى هذا أيضًا يكون السبب في جعل الطيور أربعة أو الجبال أربعًا أن المراد أن الله تعالى يحيي الموتى ويجمعهم من جميع الجهات، ولما كانت الجهات الأصلية أربعًا بنى التمثيل على ذلك.

وكأنه تعالى يقول لنبيه إبراهيم عليه السلام: أرأيت لو أنك ألَّفت إليك أربعة من الطير حتى صارت تأنس بك وتميل إليك، ثم فرقتها فجعلت كل واحد منها على جبل من جبال أربع، ثم دعوتها إليك، ألا تراها لإلفها بك وتجاوبها معك تأتيك ساعية بمجرد الدعوة؟ فكذلك أمري في سرعة تلبية الموتى لما أدعوهم إليه من العودة إلى الحياة.

فهو تمثيل السرعة والمطاوعة وتجاوب النفوس وانجذابها إلى الله لأنها من روحه.. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]، ولأنها متجهة نحوه صائرة إليه كما تتجه هذه الطيور إلى من تألفها.

وإذن فإبراهيم عليه السلام لم يطلب أن يرى بعينيه كيفية الإحياء ومراحل التكوين، وإنما طلب إبراهيم عليه السلام أن يعلم على أي وجه من السرعة والتلبية يكون الإحياء، وهذا هو الذي أراه الله إياه، إذ ضرب له مثلاً من الطير والجبال، وسيدنا إبراهيم عليه السلام حصل له العلم التام بمجرد وصف الكيفية، واطمأن قلبه وسكن له، ولهذا لم يذكر الله تعالى ما ترتب على هذه الأوامر من هاتيك الأمور، ولم يتعرض للامتثال، ولم يعبأ بالإيمان إليه.

قال العلامة الألوسي في «روح المعاني»: إن السؤال لم يكن عن شك في أمر ديني والعياذ بالله، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علمًا بها، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان والإحاطة بصورتها.

فالخليل إبراهيم عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة «كيف»، وموضوعها عن الحال.

ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم ــ وحاشاه ــ شكًّا من هذه الآية، وقطع النبي محمد ﷺ دابر هذا الوهم بقوله "على سبيل التواضع": «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»، أي: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم عليه السلام أحرى.

رؤية إبراهيم الملكوت[1]

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

الكاف في «كذلك» للتشبيه، و«ذلك» إشارة إلى غائب جرى ذكره، والمذكور ههنا فيما قيل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام وهو قوله: «إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» [الأنعام: ٧٤].

والمعنى: ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض، وههنا دقيقة عظيمة، وهي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل البتة، والأرواح البشرية لا تصير محرومة من تلك الأنوار إلا إذا كان هناك حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا

[1] – الملكوت: هو الملك، والتاء للمبالغة، كالرغبوت من الرغبة والرهبوت من الرهبة.

التجلي، فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً؟﴾، إشارة إلى تقبيح الاشتغال بغير الله؛ لأن كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله، فلما زال عن إبراهيم شواغله الدنيوية حصل له نور تجلي الله تعالى، فكأن قوله منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

والملكوت الذي أريه إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى شق له السموات حتى رأى العرش والكرسي، وإلى حيث ينتهي إليه فوقية العالم الجسماني، ورأى ما في السموات من العجائب والغوائب، كما رأى كذلك ما في باطن الأرض ما يدل على عظمة الخالق.

وقيل إن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر، وأصبح القائلون بهذا الرأي بأن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته بأساس واحد، وهو أنها محدثة ممكنة، وكل محدث ممكن، فهو محتاج إلى الصانع، وإذا عرف الإنسان الصانع، وكان بمعرفة هاتين المقدمتين قد اطلع على جميع الملكوت بعين عقله، وسمع بأذن عقله شهادتهما بالاحتياج والافتقار، وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة البتة، ثم أنها غير شاغلة عن الله تعالى، بل هي شاغلة للقلب والروح بالله، أما رؤية العين فالإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال.

ألا ترى أن من نظر إلى صحيفة مكتوبة فإنه لا يرى من تلك الصحيفة رؤية كاملة إلا حرفًا واحدًا، فإن صدق نظره إلى حرف آخر وشغل بصره به صار محرومًا عن إدراك الحرف الأول أو عن إبصاره.

فثبت أن رؤية الأشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة، وبتقدير إمكانها فهي غير باقية، وبتقدير أن تكون باقية فهي شاغلة عن الله تعالى.

ألا ترى أن الله تعالى مدح النبي ﷺ في ترك هذه الرؤية فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١١]، أي ما تجاوز الحد تأدبًا منه ﷺ.

فثبت أن تلك الإراءة كانت بحسب بصيرة العقل لا بحسب البصر الظاهر.

وقد يقول قائل بأن رؤية القلب على هذا التغير حاصلة لجميع الموحدين من الخلق، فأي فضيلة تحصل لإبراهيم عليه السلام بسببها؟

أجيب على هذا بأن هؤلاء الموحدين وإن كانوا يعرفون أصل هذا الدليل إلا أن الاطلاع على آثار حكمة الله تعالى في كل واحد من مخلوقاته بحسب أجناسها وأنواعها وأحوالها مما لا يحصل إلا للأكابر من المرسلين عليهم السلام، ولهذا المعنى كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم أرنا الأشياء كما هي**».

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فقيل إن الواو زائدة، والتقدير: نُرِي إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليستدل بها على وجود الخالق ليكون من الموقنين.

أو أن يكون هذا كلام مستأنفًا لبيان علة الإراءة، والتقدير: وليكون من الموقنين تريه ملكوت السموات والأرض.

أو أن الإراءة قد تحصل وتصير سببًا لمزيد الضلال، والعياذ بالله، كما حصل في حق فرعون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦].

وقد تصير سببًا لمزيد الهداية واليقين، فلما احتملت هذين الاحتمالين قال تعالى في حق إبراهيم: "إنا أريناه هذه الآيات لأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين".

شبهة إشارة إبراهيم إلى الكواكب

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ[1] عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ[2] قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا[3] قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ــ ٧٨].

---

[1]- قال الواحدي: يقال «جن الليل» و«أجنَّه الليل»، ويقال لكل ما سترته «جن»، ويقال أيضًا «جنه الليل»، ولكن الاختيار «جن عليه الليل» و«أجنه الليل»، هذا قول جميع أهل اللغة. ومعنى «جَنَّ» ستر، ومنه «الجن» و«الجنة» و«الجان» و«الجنين» و«المجن» وهو المقبور، كل هذا يعود إلى أصله، إلى الستر والاستتار.

وقال بعض النحويين: جنَّ عليه الليل إذا أظلم عليه، ولهذا دخلت «على» عليه، كما تقول في «أظلم»، فأما جنه فستره من غير تضمين معنى أظلم.

[2]- أفل: غاب وغرب تحت الأفق.

[3]- بازغًا: طالعا من الأفق.

وتقدير هذه الشبهة الواردة في الآيات السابقة: أن يقال كيف أشار إبراهيم إلى الكواكب قائلاً بربوبيتها «**هَذَا رَبِّي**»، مع أن القول بربوبية الكواكب كفر بالإجماع، والكفر مستحيل على الأنبياء.

ولنذكر أحسن ما قيل في هذا الموضوع حسمًا للنزاع ومحو للشك الذي راود عقول الكثيرين من الملحدين وبيانًا لمقصد إبراهيم من هذه الإشارة وما يريد أن يصل إليه عن طريقها وما يرمي إليه وراءها.

الجواب: ليس الغرض من إشارة إبراهيم إلى الكواكب إثبات ربوبيتها بل الغرض منها أن يقال:

أولاً- ﴿هذا ربي﴾ معناه هذا ربي في زعمكم واعتقادكم.

ثانيًا- وهو أحسن الأقوال إنه عليه السلام أراد أن يبطل قولهم بإلوهية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم أسلافهم وبُعد طبائعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه؛ فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلامًا يوهم كونه مساعدًا لهم على مذهبهم وعقيدتهم، مع أن الدليل على إبطاله وإفساده وإن يقبلوا قوله، وتمام التقدير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقًا سوى هذا الطريق سلكه، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فإبراهيم عليه السلام أشار إلى الكواكب ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى إذ أورد عليهم الدليل المبطل كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل.

وما يقوي هذا الوجه أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٨٨ ــ ٩٠].

وذلك لأنهم كانوا عبدة الكواكب، وكانوا يستدلون بعلم النجوم على حصول ما يقع لهم في مستقبل أيامهم، فوافقهم على هذا الطريق في الظاهر، مع أنه كان بريئًا عنه في الباطن، فلم لا يجوز أن يكون في هذه المسألة كذلك، وهي استدراجهم بقبول الدليل فكان جائزًا.

وبالإضافة إلى ما سبق أن الله تعالى قال في وصفه: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليمًا من الكفر .. وأيضًا مدحه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

أي آتيناه رشده من قبل، أي من أول زمان الفكرة، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، أي بطهارته وكماله، ونظيره: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ... إلخ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، الفاء تقتضي الترتيب مع التعقيب؛ فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد رؤية إبراهيم الملكوت وصار من العارفين قربه.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام عارفًا بربه منكرًا لعبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دون الله، حيث قال لأبيه أو لعمه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، فكيف يليق به ومن كان في منزلته أن يعتقد في إلوهية الكواكب؟ بل استدل بأفولها الدال على التغير والحدوث، وذلك من وجهين:

أحدهما- الاستتار والخفاء.

الثاني- إن حدوث أفوله يدل على حدوث بزوغه، فظهوره لأنه إذا أزال الظهور والبزوغ دل زواله على حدوثه، إذ لو كان قديمًا لما زال، وحدوث البزوغ دل على حدوث البازغ؛ لأن كل متغير حادث، والحادث لا يصلح للألوهية؛ لأن الإله واجب القدم.

شبهة: هل حصل كذب من إبراهيم؟

روي عن النبي، ﷺ أنه قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة: "هي أختي"، وفي خبر آخر: «إن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال إني كذبت ثلاث كذبات».

الجواب: إن إبراهيم عليه السلام نبي كريم ورسوله أمين، ومن أخص صفات المرسلين الواجبة في حقهم الصدق، اللهم إلا أن يكون من يريد إثبات الكذب واتصاف إبراهيم عليه السلام به ممن يجوِّز على أنبياء الله الكذب، وهم اليهود والنصارى، وسئل رسول الله ﷺ: «أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم، قيل: أيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أيكون كذابًا؟ قال لا».

لأن الكذاب جريء على الله جبان أمام الناس، فهو يستخفي من الناس بكذب، ويجابه مولاه بلا حياء، وما كنت بالذي يصم إبراهيم عليه السلام بذلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ ــ ١٢١].

وما كان الله ليجتبي كذابًا، ولا من الهداية إلى الصراط المستقيم أن يكون المهدي كذابًا.

وقال تعالى لسيدنا محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وما كان الله تعالى ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب.

وقال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣ ــ ٨٤].

قال العلامة البيضاوي في تفسير هذه الآية: أي وفقني للكمال في العمل لانتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذي لا يشوب صلاح كبير ذنب ولا صغيرة.

هذا وقد نص العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته آحادًا وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء يرد.

ففي شرح العقائد النسفية، بعد ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه: «إذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يُشعر بكذب أو معصية، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن، وإلا فمحمول على ترك الأولى، أو كونه قبل البعثة».

وجاء في الحاشية عليه قوله: «فما كان منقولاً بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أولاً فمردود لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء».

وجاء أيضًا في شرح عبد الحكيم السيالكوني على العقائد العضدية ما نصه: «وإذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يشعر بمعصية أو كذب، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن، وإلا محمول على ترك الأولى، أو كونه قبل البعثة».

والحديث المروي الذي يلصق بأبي الأنبياء الكذب إن قبلناه لزمنا كذبه، وتصديق الرواة وإن رددناه لزمنا تكذيب الرواة، ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

وقد رد العلامة الفخر الرازي الحديث، وهذا هو الصواب.

وعلى فرض أن الأحاديث الواردة منقولة نقلاً متواترًا، فإننا نجيب عنها بما أجاب سلفنا الصالح بما يحفظ العصمة لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، يحتمل أنه كان به سقم خفيف، أو أنه كان سقيم الباطن والضمير قلق الخاطر مألومًا في نفسه لرؤية قومه يعبدون غير الله تعالى ولا يصغون لعظاته ولا لنصائحه.

وأما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، قال ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء بهم وبآلهتهم ليستدرجهم إلى إقامة حجة جلية، وهي أن تلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تسمع ولا تبصر ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها الأذى، ومعلوم بداهة أنه لا كذب فى هذا.

وقوله عن زوجة سارة للجبار الذي كان يغصب النساء ذات البعل "أختي" كما قال بعض المفسرين، إن السياسة كانت تقوم على أن القوم كانوا لا يتعرضون لغير ذات الزوج، والكذب في مثل هذا الموضع مطلوب وممدوح لحفظ عرضه.

ولا أجزم بهذا الرأي، بل يحتمل أن تكون ابنة عمه، وإطلاق لفظ «الأخت» عليها سائغ لا تنكره اللغة والعرف، أو أراد أخته في الدين.

وبهذا التوجيه الذي ذكرناه انمحى الإشكال وانكشفت الغمة وانتفت الوصمة وثبتت العصمة.

كيف استغفر إبراهيم لأبيه الكافر؟

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧].

وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وتوجيه الآيتين أن الاستغفار للكافرين لا يجوز لوجهين:

الأول- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

الثاني- قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، فأمر بالتأسي به إلا في هذا الفعل؛ فوجب أن يكون ذلك معصية منه.

الجواب: لا نزاع إلا في قولكم "الاستغفار لا يجوز"، والكلام عليه من وجوه:

الأول- إن القطع عليه أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع، فلعل إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الله تعالى للكافر، فلا جرم أن يستغفر لأبيه.

الثاني- إنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان، فلما أبى من ذلك ترك الاستغفار، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأما قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، فليس في لفظ «النبي» عموم لما ثبت في أصول الفقه أن الاسم المفرد المحلَّى بالألف واللام لا يقتضي العموم، فإذا حملنا النبي على رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يلزم أن يتناول سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وأما الآية الثانية فهي على أنه لا يجوز التأسي به في ذلك الاستغفار فلم يدل على أن الاستغفار لم يكن جائزًا له، ولكنا نحمل الاستغفار الذي أتى به على استبطاء العقاب أو تخفيفه، أو على أنه ما كان عالمًا بكيفية الأحوال.

فائدة:

اختلف المفسرون في الموعدة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

فقيل: وعد الأب ابنه بالإيمان.

وقيل: وعد الابن أباه بالاستغفار.

والأول أولى على قولنا إنه لا يجوز الاستغفار للكافر؛ لأن وعد الابن أباه بالاستغفار لوعد الأب ابنه بالإيمان، وإذا كان وجود هذا الوعد واجبًا ووجود الثاني غير واجب؛ كان حمل اللفظ على الوعد الأول أولى.

ما نسبته التوراة إلى إبراهيم؟

في الباب الثاني عشر والباب العشرين من سفر التكوين: «وحدث أنه لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته أني قد علمت انك امرأة حسنة المنظر؛ فيكون إذا رآك المصريون إنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًا، ورآها رؤساء فرعون مدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيرًا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبرام فدعا فرعون إبرام وقال ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى آخذتها لي لتكون زوجتي الآن، هى ذا امرأتك خذها واذهب».

وهذه القصة نسبت إلى إبراهيم أمورًا معيبة لا يصح صدورها من أقل الناس قدرًا، وهي:

أولاً- إنه كان يعلم قبل ارتحاله إلى مصر بحال القوم، وإنه إذا ذهب إليها يُهتك عرضه، ولم يقل في التوراة إن الله تعالى أمره بالارتحال إلى مصر، بل بالعكس، تفيد أنه انتقل من الأرض التي أمره بالارتحال إليها إلى مصر بدون أمر. نعم، قد يقال إنه انتقل منها لضرورة المجاعة، ولكن كانت له مندوحة

بالانتقال إلى جهة أخرى ليس فيها ذلك الخطر، فعلمه هذا دليل على امتهانته بأمر عرضه إلى أبعد مدى.

ثانيًا- اتفق معها على الكذب بإنكار كونها زوجه من أول الأمر قبل أن يدهمه الخطر، وإلا فقد كان يصح أن ينتظر حتى يعلم إن كان الله يحفظه أم لا.

ثالثا- طلب منها أن تنكر أنها زوجته لأمرين:

أحدهما أن ينجو من القتل، وثانيهما أن يناله خير، وهذا من أخس ما يصدر عن كريم؛ لأن الذي يرضى بأن يتفق مع زوجه على دخول بلد تُغتصب فيها الأعراض وأن يسلمها بنفسه في نظير أن يأخذ مالاً لا يشك عاقل في أنه ديوث لا قيمه له في الوجود.

رابعًا- قد نص في عبارة التوراة على أن المرأة أُخذت فعلاً إلى دار فرعون، وأنها أعجبته، وأرسل لإبراهيم مهرها ــ طبعًا ــ من حمير وجمال وبقر وغنم... إلخ، فلابد أن يكون فرعون قد عاشرها معاشرة الأزواج لأنه أخذها على أنها زوجه له، وهذه حاله شائنة مخزية، فكيف يرضى بها إبراهيم؟!

خامسًا- صرحت بأن فرعون ضُرب بسبب سارة هو وأهل بيته، وذلك ظلم لفرعون وأهل بيته يستحيل أن يصدر عن الله سبحانه وتعالى؛ لأن إبراهيم أفهمه أنها أخته وأنها خالية الأزواج طبعًا، وأخذها فرعون زوجًا له، وذلك جائز لا شيء فيه مطلقاً، فما ذنب فرعون حتى يضربه الله؟ إن الذنب في هذا على إبراهيم نفسه الذي طمع في أخذ المال وعرفهم بأنها

أخته لا زوجه، وأنه يصح أن تتزوج فتزوجها فرعون، فلماذا إذن يضربه الله بعد ذلك؟

ولا يقال إن الله انتقم منه بسبب أنه قد سن هذه السنة السيئة، وهي اغتصاب النساء الجميلات وقتل أزواجهن؛ لأن ذلك لم يكن خاصًّا بسارة وإبراهيم، بل هو عقوبة على الفعل في ذاته، وذلك ظاهر لا خفاء فيه، فلا شك في أن ذلك كذب من أوله إلى آخره.

نعم، قد يقال إن لهذه القصة أصلاً، وهو ما ورد في بعض الأحاديث من أن إبراهيم فوجئ بهذا الأمر مفاجأة، فاضطر لأن يخبر بغير الواقع لينجو من القتل، وهذه الحالة جائزة في كل الشرائع؛ لأن المحافظة عن الأنفس المظلومة من القتل فرض لازم، ثم لما ذهبوا بسارة إلى ملك مصر مد يده إليها فصرعه الله، فلما أفاق مد يده إليها مرة أخرى فصرع ثانية، وفي الثالثة كف عنها وأرسلها إلى زوجها دون أن يمسها بسوء، ذلك هو المقصود الذي يصح وقوعه، فلم يتفق إبراهيم على بذل عرضه ليأخذ مالاً، ولم يتفق على الكذب من أول الأمر، ولكن الجهلة قد حرفوا ذلك أسوأ تحريف؛ فجزاهم الله عن الأنبياء أسوأ الجزاء.

ومن الغريب أنه كرر هذه الحادثة في الإصحاح العشرين من ذلك السفر؛ فقال إن إبراهيم لما انتقل إلى أرض الجنوب، وتغرب في "جرار"، قال عن سارة إنها أخته لا زوجه، فأرسل إليها ملك جرار

وأخذها، ولكن الله سلم في هذه الوقعة، فإن الله تعالى أتى لملك جرار في المنام وحذره أن يقرب سارة وإلا أهلكه هو وقومه.

ومن الطريف أن ملك جرار حاور ربه في المنام محاورة معقولة، لأنه قال له: يا رب، إن زوجها هو الذي قال إنها خالية الأزواج ولم يخبرني بشيء، فهل تهلك شعبنا دون ذنب؟

فقال له ربه: إني لا أريد هلاكك وهلاك قومك، ولو أردت ذلك ما أخبرتك في المنام.

فلما أصبح استدعى إبراهيم وعاتبه على هذه الفعلة المنكرة التي لا يصح أن تقع من مثله؛ فاعتذر إبراهيم... إلخ.

فهل رأيت أقبح من هذه الأفعال الدنيئة التي وضعها هؤلاء المبشرون لينالوا من قدر الأنبياء ويضعوا من شأنهم وكيف يرضى أن يعرض بزوجه أو أخته أحط الناس قدرًا فضلاً عن أعلاهم منزلة وشرفًا ..

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

الشبهات الواردة في حق لوط عليه السلام

قصة لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران ابن أخ إبراهيم بن تارخ، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾، وقال ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي... إلخ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وتبع إبراهيم عمه في رحلاته، فكان معه بمصر، وأغدق عليه ملك مصر، كما أغدق على إبراهيم، فكثر ماله ومواشيه، ثم افترق من إبراهيم عن تراض؛ لأن الأرض لم تتسع لمواشيهما، ونزل إلى سدوم في دائرة الأرض.

قوم لوط

كان أهل سدوم يقطعون الطريق على السابلة، قال تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، كما كانوا يأتون المنكر جهارًا على ملأ من الأشهاد، وما أقبح ما كانوا يفعلون؛ إذ كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء، قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾

[الأعراف: ٨٠ ــ ٨١].

وقد وعظهم لوط عليه السلام، ونهاهم عن معاصيهم وفجورهم، وحذرهم وخوفهم بأس الله تعالى، فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا ولم يكفوا عما هم فيه.

فلما ألح عليهم بالكف عن فحشهم وفجورهم هددوه تارة بالرجم وتارة أخرى بالإخراج من بينهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

واستمر لوط عليه السلام في دعوته لهم، إلى أن جاءته الملائكة بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه، فجاء أهل القرية إلى لوط مسرعين طالبين ضيوفه ليفعلوا بهم الفاحشة، وقد جهد لوط عليه السلام في ردهم ودفعهم عن قصدهم، ووجد منهم عنادًا وإصرارًا، حينئذ التفت لوط إلى الملائكة وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، أي لجاهدتهم بكم، وأوقعت بهم من العذاب ما يستحقون.

وكان لوط عليه السلام لا يعلم أنهم ملائكة إلى ذلك الحين، وحينئذ أعلمته الملائكة بحقيقة أمرهم، وأنهم جاءوا للتنكيل بأولئك القوم الفسقة، ولما حاول أهل القرية أخذ أولئك الملائكة بالقوة وهجموا على بيت لوط محاولين اقتحامه طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا إلى مكان يقتحمونه عليه وعلى من معه، ثم أخرج الملائكة لوطًا وابنتيه وزوجه من القرية، وأمروهم إلا يلتفت منهم أحد، وأن يحضروا حيث يؤمرون، فصدعوا بالأمر إلا امرأته، فإنها التفتت إلى القرية لترى ما يحل بها،

وكان هواها في أهل القرية دون لوط؛ فحل بها من السخط والعذاب ما حل بهم، وكانت كافرة؛ فأمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقلبت ديار القوم وجعل عاليها سافلها.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ ــ ٨٣].

الشبهات الواردة في حق لوط

قال تعالى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾ [هود: ٧٨].

الشبهة:

كيف عرض لوط بابنتيه لأن تؤتى بهما الفاحشة؟

وكيف ارتضى لهما أن يقدمهما لهؤلاء الفسقة وهو رسول كريم؟.

يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويدعو إلى الفضيلة ويحارب الرذيلة؟

الجواب:

إن لوط عرض بناته على القوم عرضًا غير مؤكد لا يقصد به الحقيقة، ولكنه عرض ابنتيه ظنًا منه أنهم سيستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزايته في ضيفه، كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحول بينه "دعه واضربني أنا"، فأنت تقول هذا القول وأنت واثق كل الثقة بأنه لا يضربك، ولو علمت أنه يضربك حقًا ما قلت له هذا القول ولا تعرضت للشفاعة.

وهذا القول قد أورده الكثير من المفسرين كأبي المسعود والفخر الرازي والأصفهاني وغيرهم، وهذا هو الرأي الصواب، ويصح أن يكون عرض ابنتيه عليهم للزواج، وإن كان لم يتعرض لذكره، إلا أنه معتد به في الأمر، والدليل على أن هذا الشرط كان معتدًّا به وجهان:

الأول- قال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، ولا طهارة في الزنا.

الثاني- إنه لو عدنا نفسه إلى الزنا لكان لهم أن يقولوا الزنا واللواطة سواء أو حرامان على مذهبك، فأي فائدة في الدعوة من أحدهما إلى الآخر.

فإن قيل: هب أنه كذلك، ولكن كيف يجوز تزويج المسلمة من الكافر؟

والجواب: إن ذلك يختلف باختلاف الشرائع، ألا ترى أن النبي ﷺ زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع الكافر، وكانت خالته السيدة خديجة رضي الله عنها؟ ولما أخذ أسيرًا في بدر مع المشركين مَن عليه المسلمون على أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة؛ ففعل، ثم لم يلبث أن جاء مسلمًا بعد هجرة زينب بسنة؛ فردها عليه النبي ﷺ بالنكاح الأول، وقد كان تزوجها قبل البعثة النبوية.

أو أن لوطًا عليه السلام أراد موافقتهم وتسويفهم، وذلك لأن الملائكة كانوا قد أخبروه بهلاكهم عند الصبح، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]*.

* وقيل ـــ وهو ما نميل إليه ـــ إن المقصود بقوله «هؤلاء بناتي» بنات البلدة وليس بناته من نسله، وهو ما اعتيد قوله للآن بأن يصف حاكم البلدة أو كبيرها الشعب بـ"أبنائي وبناتي"، وهذا أنسب لأنه يوجه خطابه لأهل البلدة عمومًا، وهم عدد كبير، داعيًا إياهم إلى الطهر والزواج.. الناشر.

تناقض التوراة في أمر لوط

لقد اعترفت التوراة برسالة لوط، وأنه من الأنبياء المقدسين، وقد نجاه الله وعمه من خطيئة قومه، ثم رمته بما هو منه براء.

فقد ورد في رسالة بطرس الثانية من الباب الثاني: «إن الرب أنقذ لوطًا البار من سيرة الأرذياء في الدعارة»، كما وصفه بطرس بأنه "بار" حتى بعد ما ارتكب فعلته الشائنة التي نسبوها إليه.

وقد ذكرت توراة المبشرين في الباب التاسع عشر من سفر التكوين قصة لوط، فقصَّت أمر الملائكة الذين نزلوا ضيوفًا عليه في صورة جميلة، فلما رآهم قومه هرعوا إليهم ليأتوا معهم الفاحشة؛ فرجاهم في الكف عنهم فلم يقبلوا، فقالت له الملائكة لا تخف، وأسرع بالخروج؛ لأننا سنهلكهم؛ فخرج مسرعًا إلى بلده يقال لها "صاغر"، ثم قالت ما نصه:

«فصعد لوط من صاغر وسكن في الجبل وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه؛ فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتها أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرًا الليلة أيضًا، فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضجاعها ولا

بقيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه "مؤاب"، وهو أبو المؤابين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه "بن عمي"، وهو أبو بني عمون إلى اليوم» ا. هـ (عدد ٢٠ إلى آخر الباب).

ذلك نص توراتهم في قذف لوط وابنتيه، ومثل هذه الجريمة من الجرائم الشاذة التي لا تقع في العالم على اختلاف العصور والأزمنة إلا نادرًا، فإذا فرض ووقعت من إنسان فانه لا يصح لمؤرخ أن يذكرها؛ لأن ذكرها لا فائدة منه مطلقًا، وإنما فيه مضار عظيمة وإثم كبير؛ إذ قد قذف بنات الأنبياء العفيفات الطاهرات بالفجر والعهر والفسق وهن بريئات.

فهذه الرواية التي ذكرتها توراتهم المزيفة مكذوبة ومفتراة؛ لأنه يستحيل صدورها من ابنتي لوط لعظم الجريمة وبشاعة الفعل الفاضح.

ونقول للمبشرين الذين يؤمنون بالتوراة ويدَّعون صحتها وينفون كل ما نُسب إليها من زيف:

هل هذا الكلام الذي وصمتم به ابنتي لوط، وألحقتم به وبنسله العار من عند الله أم لا؟ فإن لم يكن من عند الله فقد ثبت أن التوراة محرفة، وإذا قلتم إنها من عند الله، فما فائدة ذكر هذا الكلام ونزول الوحي به على موسى عليه السلام، ووصفه بالخيانة وارتكابه لأكبر الجرائم المخلة بالخلق والعقيدة والدين؟

الشبهات الواردة في قصة يوسف عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

هذه الآية الكريمة من الآيات التي كثر فيها الجدل منذ نزولها، إذ تصور لنا ذلك الصراع العنيف بين فتى مشترى بدراهم معدودة وبين امرأة ملك مصر التي شغفها حبًا بحسنه وجماله، وقد توسلت إليه بكل وسيلة من وسائل الفتنة والإغراء تارة، وأخرى بالتهديد والوعيد لكي تقضي مأربها وتصل إلى غايتها وتهدئ من شهوتها الثائرة وقلبها الملتاع، ولكن هيهات هيهات أن تنال منه شيئًا، وقد عصمه الله منها؛ فأبى إباء، وآثر السجن على شهوة زائلة تعقبها حسرة دائمة، وهذا في غاية مقامات الكمال وأسمى منازل العفة؛ إذ تدعوه سيدته الملكة وهو عبد أسير تحت يديها فيرفض طلبها ويمتنع في عزة وكبرياء؛ حياء وخوفًا ورهبة من الله تعالى الذي يراه ويعلم سره ونجواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي امتنع عن الإقدام على الفاحشة، واستعاذ يوسف عليه السلام، من شر النسوة اللاتي أرسلتهن إليه امرأة العزيز ليرين حسنه وجماله وبهاءه،

قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ــ أي من الفاحشة ــ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]..

أي إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضرًّا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك توكلت؛ فلا تكلني إلى نفسي .. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ...﴾ [يوسف: ٣٤].

والعلماء في توجيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] فريقان:

<u>الأول</u>:

يرى براءته من تحرك شهوته وميل قلبه وإقدامه على فعل المنكر، وهذا هو قول المحققين، وبه نقول للبراهين والحجج الكثيرة التي تثبت عصمة الأنبياء وتنفي صدور الذنب عنهم.

وذلك أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة، أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم حيث أواه ملك مصر وقال لامرأته أكرمي مثواه وأحسني إليه واعطفي عليه؛ بالإساءة الموجبة للفضيحة والعار الشديد، وكذلك الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي معززًا مكرمًا مكفي المؤنة منذ صباه إلى شبابه وكمال قوته، فمقابلة هذا الصبي المنعَم عليه بالإساءة إلى من أحسن في أعز شيء لديه وهو عرضه، وإذا ثبت هذا فنقول:

إن هذه المعصية التي نسبوها لسيدنا يوسف عليه السلام لو نسبت إلى أفسق خلق لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول المؤيد بالمعجزات الباهرات، ثم إن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وذلك يدل على أن داعية السوء والفحشاء مصروفة عنه.

والأنبياء أيضًا متى صدرت منهم هفوة بأن فعلوا خلاف الأولى استعظموا ذلك، واتبعوها بإظهار التوبة والندامة، ولو كان قد صدر من يوسف شيء لكان من المحال ألا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بالتوبة لحكى الله عنه إتيانه بها، كما في قصة آدم وسائر المواضع، وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه لم يصدر منه ذنب.

ومن الأدلة أيضًا التي تشهد ببراءة يوسف عليه السلام، أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة قد شهد ببراءته، وهؤلاء الشهود هم المرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين، حتى إبليس اللعين، وإذا كان الأمر كذلك لم يبقَ للمسلم توقف في هذا الأمر.

وبيان ذلك أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة من الذنب فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، و ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقالت المرأة للنسوة معترفة بجرمها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. وشهادة الزوج قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وشهادة الشهود: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [يوسف: ٢٦ ــ ٢٧].

وشهادة الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهذه الآية شهادة من الله تعالى بعفته وطهارته وبراءته.

وأما إقرار إبليس اللعين بطهارته فلأنه قال: «فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [ص: ٨٢ ــ ٨٣]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين من عباده، ويوسف من المخلصين، فكان هذا إقرارًا من إبليس بأنه ما غواه وما أضله عن طريق الهدى.

قال العلامة الفخر الرازي: وعند هذا تقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه المعصية، فإن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا

شهادة الله على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس اللعين وجنده فليقبلوا شهادة إبليس اللعين على طهارته.

ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر من تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه ففقناه في السفاهة كما قال الخوارزمي:

وَكُنْتُ امْرَءًا مِنْ جُنْدِ إبْلِيسَ فَارْتَقَى

بِي الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ

فَوَ مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ

طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُحسِنُهَا بَعْدِي

ومما قيل على ظاهر هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]:

أنه لو سلم أن «الهم» قد حصل إلا أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، لا يمكن حمله على ظاهره؛ لأن تعلق «الهم» بذات المرأة محال؛ لأن «الهم» من جنس القصد لا يتعلق بالذوات، فثبت أنه لابد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق «الهم» ذلك الفعل غير المذكور.

وزعم البعض أن ذلك المضمَر هو إيقاع الفاحشة.

قال الفخر الرازي: ونحن نضمر شيئًا آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه.

الأول- المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك الفعل القبيح؛ لأن «الهم» هو القصد؛ فوجب أن يحمل في حق كل على

القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والمتعة، واللائق بالرسول الكريم القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقال: هممت بفلان، أي بضربه ودفعه.

فإن قيل فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] فائدة، قلنا بل فيه أعظم الفوائد.

الأول- إنه تعالى أعلم يوسف أنه لو هم بدفعها لقتلته، أو لكانت تأمر من يقتله، فأعلمه مولاه أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس من الهلاك.

الثاني- إنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من الإمام وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من الإمام لكان يوسف هو الخائن وثبتت جريمته، ولو كان ممزقاً من الخلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها، عن نفسه بل ولي هاربا منها حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته من المعصية.

الوجه الثاني في الجواب:

أن يفسر «الهم» بحديث النفس؛ وذلك أن المرأة الفائقة في الحسن والجمال، إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب، فلابد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين العقل والنفس منازعات ومجازفات، فتارة

تقوى داعية الطبيعة وتارة أخرى يقوى ضبط النفس وكبح جماحها، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية.

مثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف، إذا رأى الماء البارد المثلج فإن طبيعته تحمله على شربه إلا أن دينه يمنعه عنه، فهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل.

وأما أصحاب الرأي الثاني الذين فسروا «الهم» بالعزم على الفاحشة فقد استندوا إلى ما رواه الواحدي في كتاب «الوسيط»، قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روائيهم: هم يوسف بهذه المرأة همًّا صحيحًا، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، فلما رأى برهان ربه زالت عنه كل شهوة.

وروي أيضًا أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه.

فهذه الأدلة الواهية المفتراة التي نقلها الواحدي وأطال فيها دون فائدة تذكر، وما ذكر آية واحدة تؤيد دعواه ولا حديثًا صحيحًا يقوم عليه ويحتج به في تصحيح هذه المقالة.

ومع الأسف الشديد، إن الذين قالوا بهذا الرأي أعرف بحقوق الأنبياء وبرفعة منازلهم عند الله من الذين نفوا «الهم» عنه.

ما هو البرهان الذي رآه سيدنا يوسف؟

فالذين نفوا عن يوسف المعصية فسروا البرهان بما يأتي:

أولاً- إنه رأى مكتوبا في سقف البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ثانيًا- إنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، وذلك أن الأنبياء بُعثوا لنشر الفضائل وطي الرذائل، فلو أنهم منعوا الناس ثم أقدموا عليها دخلوا تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ــ ٣].

وأيضًا فإن الله تعالى عيَّر اليهود بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وما يكون عيبًا في حق اليهود فكيف يُنسب إلى الأنبياء؟!

ثالثًا- إن المراد بالبرهان هو تذكر الأحوال الرادعة لهم عند الإقدام على فعل المذكر.

وأما الذين فسروا «الهم» بالمعصية فقد ذكروا في تفسير البرهان أمورًا:

أولاً- قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال يوسف: لم فعلتِ ذلك؟ فقالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصية، فقال سيدنا يوسف عليه السلام: أتستحين من

صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت؟ فو الله لا أفعل ذلك أبدًا.

ثانيًا- نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب، فرآه عاضًّا على أصابعه ويقول له: أتعمل عمل الفجَّار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء؟ فاستحيا منه.

ثالثًا- سمع قائلاً يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنا ذهب ريشه.

رابعًا- نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أن سيدنا يوسف لم ينزجر برؤية صورة يعقوب عليه السلام حتى ركضه جبريل عليهما السلام؛ فلم يبقَ فيه شيء من الشهوة إلا خرج.

ونحن نرى أن هذا بعيد كل البعد عن سيدنا يوسف ولا يليق بمقامه، وقيل في ذلك أيضًا أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، جواب "لولا" مقدم عليها، وعلى ذلك فلا «هَم» أصلاً*.

وأحسن من هذا كله أن «الهم» حديث النفس، ولا شيء فيه.

مصداق ذلك حديث: «**من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة**».

هذه هي خلاصة ما قيل في هذه الآية الكريمة، ذكرناها إجلاء للحقيقة وإنصافًا للحق ونفيًا للشبهة وتبصرة للمسلمين بما يهمهم من أمر الأنبياء،

* ويكون التقدير: "وهمَّت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها".. الناشر.

وما يزيل عنهم الشك الذي راود عقول الكثيرين منهم بسبب تلك الأدلة الواهية القادحة في عصمة الأنبياء.

شبهة «السجود ليوسف عليه السلام»

قال الله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتقرير هذه الشبهة: أن يقال كيف سجد سيدنا يعقوب عليه السلام وأبناؤه ليوسف من دون الله مع علمهم بأن السجود لا يكون إلا لله كما فهم من ظاهر الآية؟

وأيضًا يقال: كيف استساغ يوسف عليه السلام سجود أبيه مع عظم حقه عليه في الأبوة وعلو حاله في النبوة مما كان يقتضي أن يكون سيدنا يوسف هو المعظم لوالده برًّا به ورحمة بشيخوخته وإكرامًا لنبوته.

الجواب:

أولاً- إن ذلك السجود كان سجود شكر، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله.

والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، مُشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير، ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف عليه السلام لسجدوا قبل الصعود على السرير؛ لأن ذلك أدخَل في التواضع.

فإن قيل: هذا التأويل لا يطابق قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لأجلِي، أي أنها سجدت لله طلبًا لمصلحتي وسعيًا في إعلاء منصبي ومكانتي.

وإذا كان هذا محتملاً سقط السؤال وزال الإشكال.

ولا ريب أن هذا التأويل متعيَّن ومقبول عقلاً وديانة؛ لأنه يستبعد من يوسف عليه السلام، وإيمانه وأدبه أن يرضى أن يسجد له أبوه وإخوته، فضلاً عن سجودهم له من دون الله.

ثانيًا- أن يقال إنهم جعلوا يوسف كالقبلة، وسجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه، وهذا تأويل حسن أيضًا، فإنه يقال صليت للكعبة إذا كنت متوجهًا لعينها كما يجوز أن يقال سجد للقبلة.

فقوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٢٤]، أي جعلوه كالقبلة، ثم سجدوا لله شكرًا على جمع شملهم به.

ثالثًا- قد يسمى التواضع سجودًا، إلا أن هذا مشكل؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٢٤]، و«الخرور» إلى السجدة، مشعر بالسجدة على أكمل الوجوه.

وأجيب عن هذا الإشكال بأن «الخرور» قد يعني به المرور، قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يعني: لم يمرُّوا.

رابعًا- لعل الله تعالى أمر يعقوب عليه السلام بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعلمها إلا هو، كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعلمها إلا هو، ويوسف عليه السلام ما كان راضيًا في قرارة نفسه عن هذا الفعل، إلا أنه لما علم أن الله تعالى أمره بذلك سكت، ثم حكى الله تعالى أن يوسف عليه السلام لما رأى هذه الحالة قال: «**يأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**» [يوسف: ١٠٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه، وقال لوالده يعقوب عليه السلام: «**هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ**» [يوسف: ١٠٠].

وهذا يقوِّي هذا الجواب، كأنه قال: يا أبتِ، لا يليق بمثلك مع جلالك في العلم والنبوة والدين أن تسجد لولدك، إلا أن هذا أمرٌ أُمِرت به وتكليف كُلِّفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق، بدليل رؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام ذبح ولده، فصارت سببًا لوجوب ذلك الذبح، ولولا فداء الله تعالى له بذبح عظيم لحقق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة وعليه السلام ما رآه ونفذ أمر ربه.

شبهة «اذكرني عند ربك»

تقرير هذه الشبهة، كيف يجوز ليوسف عليه السلام مع نبوته أن يعول على غير الله تعالى في الخلاص من السجن؟ حتى وردت الروايات أنه إنما طال مقامه بالسجن لأنه عول على غير الله تعالى.

الجواب: إن الدنيا دار الأسباب؛ فالتمسك بالأسباب لا ينافي حقيقة التوكل على الله تعالى.

شبهة «طلب أخيه وحبسه»

تقريرها: ما الحكمة في طلب أخيه بنيامين ثم حبسه عن الرجوع إلى أبيه، مع علمه بما يلحق أباه من الغم والحزن؟ وهل هذا إلا إيذاء لأبيه؟

الجواب: إنما فعل ذلك بوحي من الله تعالى زيادة في امتحان أبيه، والمراد من قوله: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١]، ليس الخداع والكذب، بل اللطف والاحتيال.

شبهة «إلصاق تهمة السرقة بأخيه»

تقرير هذه التهمة أن يقال: كيف جعل يوسف عليه السلام السقاية في رحل أخيه وتعريضه لتهمة السرقة والتشهير به على ملاء من الأشهاد، وهذا إثم كبير لبراءته من هذه التهمة، وهذا الفعل يتنافى مع مقام النبوة؟

الجواب: إن جعل السقاية في رحل أخيه المقصود التسبب فى احتباس أخيه عنده.

ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى: بوحي منه.

وروي أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقًا إلى التمسك به، وعلى هذا الوجه لا يكون سببًا لإدخال الغم على قلب أخيه وإلحاق الضرر به.

فإن قيل: فلا أقل من أن يكون ذلك سببًا لتعريض أخيه لتهمة السرقة؟

قلت: لا نسلم، فإن وجود السقاية في رحل أخيه لن يعرضه لشيء مطلقًا، خصوصًا بعد كشف الحقيقة.

وأما نداء المنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، ففيه ثلاثة أوجه:

الأول- إنه ما كان بأمره عليه السلام، بل نادى بذلك واحد من القوم لما فقدوا الصواع.

الثاني- هب أنه كان بأمره لكنه لم ينادَ بأنهم سرقوا الصواع، بل نادى بأنهم سارقون، فلعل المراد أنهم سرقوا يوسف من أبيه.

الثالث- إن الكلام على معنى الاستفهام وإن كان ظاهر الخبر كأنه قال "أرى أنكم لسارقون؟"، فأسقط همزة الاستفهام كما أسقطت في قوله تعالى: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

شبهة «سكوت يوسف مدة على حزن أبيه»

تقديرها: أن يقال: كيف مكث يوسف عليه السلام تلك المدة ولم يخبر أباه مع علمه بشدة حزنه عليه؟

الجواب: لعله امتنع عنه بأمر الله تعالى تشديدًا على سيدنا يعقوب عليه السلام لزيادة أجره.

شبهة «كيف طلب يوسف الولاية من قبل الظالم؟»

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

الجواب: إنما التمس الولاية من الملك وتمكينه من خزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل، لأنه بسبب نبوته كان مستحقًا لذلك، وللمستحِق أن يتوصل إلى حقه بأي طريق كان.

الشبهات الواردة في حق يعقوب عليه السلام

الشبهة الأولى: الترجيح

إن ترجيح يعقوب عليه السلام ليوسف على إخوته في المحبة وإيثاره عليهم مع علمه أن هذا سيؤدي إلى الحسد وإفساد العلاقات فيما بينهم، فلم فعل ذلك مع علمه ودينه ونبوته؟

الجواب من وجهين:

الأول- لا نسلم أنه رجح يوسف على إخوته في الإكرام، بل كان راجحًا في المحبة وميل الطبع، وذلك غير مقدور عليه، فلا يكون مكلفًا بتركه.

الثاني- هب أنه عليه السلام رجحه في الإكرام، لكن لا نسلم علمه بأن ذلك الترجيح سيؤدي إلى المفسدة فيما بينه وبين إخوته.

فلعله رأى من سداد إخوته وجميل ظاهرهم ما غلب على ظنه أن ترجيحه لا يقضي إلى شيء من البغض والكراهية لأخيهم يوسف؛ فإن الحسد وان كان راسخًا في الطبع إلا أن كثيرًا من الناس يحترزون منه ويجتنبونه.

الشبهة الثانية: «إن أبانا لفي ضلال مبين».

وتقريرها: إن وصف إخوة يوسف لأبيهم يعقوب بالضلال قدح في عصمته، ويلزم منه كفرهم، فكيف ساغ لهم أن يصفوا أباهم بالضلال؟ وأن يقعوا فيما وقعوا فيه؟

الجواب: ليس المراد بالضلال عن الدين بالإجماع، بل المراد العدول عن الصواب. أو يقال إن مرادهم وصف يعقوب بالغلو في الحب، وذلك غير مقدور له، وبالتالي لم يكن وصفهم لأبيهم بذلك قدحًا في عصمته*.

الشبهة الثالثة: «وأخاف أن يأكله الذئب».

تقريرها: كيف غرر يعقوب عليه السلام بابنه يوسف وأرسله مع إخوته مع عدم اطمئنانه عليه في ذهابه معهم وإحساسه العميق بما سيحدث له في صحبتهم؟

الجواب: إن يعقوب عليه السلام لما رأى في بنيه من الإيمان والعهد بحفظ أخيهم يوسف حيث قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، دفعه إليهم وهو مطمئن غاية الاطمئنان لأخذهم العهد على أنفسهم بالحفظ، وربما ظن أنه لو لم يرسله معهم مع مبالغتهم في إظهار

* ثم لنعد إلى "الضلال" في معناه البسيط الأولي، بمعنى عدم الاهتداء إلى طريق الجادة، أو الغفلة والنسيان، وهو ما وصف به سبحانه نبيه المصطفى عليه السلام حينما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، إذ بالتأكيد لا يريد الله وصف مصطفاه عليه السلام، الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى بالضلال الذي يقدح في العصمة، سواء قبل الرسالة أو بعدها.. الناشر.

الحب له وحرصهم على سلامته لاعتقدوا في أبيهم أنه يتهمهم في بُغضهم ليوسف، فيصير ذلك سببًا للوحشة العظيمة فيما بينهم وبين أخيهم؛ فلهذا بعثه معهم وفوَّض أمره إلى الله تعالى.

الشبهة الرابعة: البكاء

كيف أسرف يعقوب عليه السلام في الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناه ومن شأن الأنبياء التجلد والصبر والتسليم؟

الجواب: الصبر على المصائب وكظم الخزن مندوب إليه وليس بواجب، وترك المندوب ليس بمعصية.

على أن يعقوب عليه السلام، مع شدة حزنه على ولده يوسف عليه السلام لم تصل إلى درجة الجزع ــ والعياذ بالله ــ وعدم الرضا، حاشاه من ذلك، بل كان يبث شكواه إلى مولاه متضرعًا إليه يسأله اللطف به ورفع البلاء عنه في خضوع وخشوع، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ومثل هذا لا يكون جزعًا، بل كان يقع في قلبه بأن الله تعالى سيرد عليه ولده يوسف ويصرف عنه همه وغمه، ولذلك قال لهم في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

وأيضًا: كيف بلغ الحزن بيعقوب عليه السلام ما بلغ من علمه برؤيا يوسف، وأن أمره سيفضي إلى العاقبة الحسنة في الدنيا والدين؟

فلم لم يتسلَّ بذلك حتى يجمع الله عليه ولده؟

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٤ ــ ٦].

الجواب: يوسف عليه السلام حين رأى تلك الرؤيا كان صبيًا، وبالتالي لم يقطع يعقوب عليه السلام بصحتها.

أو أن شدة حبة ليوسف ولوعة فراقه وبعده عنه ما جعله ينسى تلك الرؤيا.

مطاعن اليهود في يعقوب عليه السلام

أولاً- نسبت التوراة إلى يعقوب عليه السلام في الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين خيانة عظيمة في قصة خرافية خيالية مضحكة وملخصها:

إن إسحاق عليه السلام كان له ولدان: أحدهما «يعقوب»، وكان محبوبًا لأمه أكثر من أبيه.

وثانيهما «عيسو»، وكان بالعكس، محبوبًا لأبيه أكثر من أمه، فلما أدركت إسحاق الشيخوخة وكف بصره قال لابنه عيسو: اذهب فاصطد لي صيدًا وأتني به لآكله حتى ترضى عنك نفسي وأباركك قبل أن أموت، يعني يعطيه عهد النبوة.

فذهب عيسو ليصطاد، ولكن أمه واسمها «رفقة» كان تسمع كلامهما، فقالت لابنها يعقوب: اذهب يا بني إلى الغنم وأتِ بجديين جيدين لأصنعهما طعامًا حسبما يشتهي أبوك ليأكل ويبارك قبل وفاته ــ تريد أن يخدع أباه في أمر النبوة! ــ ولكن يعقوب تردد في الأمر أولاً، فقال لها إن أخي عيسو له شعر كثير على يديه وعنقه، أما أنا فلا شعر لي، فإذا وضع أبي يده على جسمي فإنه يعرفني وأجلب على نفسي لعنته.

فقالت له أمه: أنا أحتمل هذه المسئولية، فأطاعها، وصنعت له الطعام الذي يشتهيه إسحاق، وألبسته ثياب عيسو الفاخرة، ووضعت على يده شعر الماعز، وذهب على هذه الحالة إلى أبيه، وأفهمه أنه عيسو جاء

بالصيد، فارتاب أبوه في صوته، إلا أنه لما مس يديه ووجد عليها شعرًا اعتقد أنه عيسو، فأكل هنيئًا مريًّا، ثم باركه وأعطاه عهد النبوة، ودعا له بالبركة وتكثير عمره وخبزه.

ولما فرغ إسحاق من تبريك يعقوب وخرج يعقوب، حضر عيسو وقدم لأبيه الطعام الذي اصطاده، فلما عرف إسحاق الحيلة ارتعدت فرائصه، وحصلت له رعدة شديدة، وأخبره ولده عيسو بما كان من أمر يعقوب؛ فهاج عيسو هيجانًا شديدًا، ولكن ماذا يصنع وقد نفذ السهم وفاز يعقوب بالبركة؟!

هكذا تقول التوراة التي يؤمن بها المبشرون من اليهود والنصارى، ويعتقدون أنها وحي من عند الله تعالى.

الجواب: على هذه القصة المفتراة..

١- إن أمر النبوة ليس منوطًا بالأشخاص حتى يكون لإسحاق تلك الميزة التي يمنح بها من يريد من الناس ما هو خاص بالله رب العالمين الذي يمنحها من عباده: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

٢- هب أن إسحاق مجاب الدعوة، فهل الله سبحانه وتعالى العليم بخطرات النفوس وما تكنه الصدور، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، تخفى عليه حيلة رفقة، ولم يميز بين من يعضده إسحاق بالدعاء وبين من خدعه .. تعَالَى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإذا كان

إسحاق خُدع لأنه بشر، فهل يُخدع الله؟ أليس ذلك دليلاً واضحًا على كذب هذه القصة وأنها من وضع هؤلاء الضالين؟

٣- إن يعقوب عليه السلام إذا كان حدث منه ما يزعمونه، فيكون قد خان والده وخدع خالقه .. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وأخذ النبوة كرهًا واغتصابًا، فهل يؤتمن ذلك النبي على الوحي؟

كلا، إن هذه الخيانة تتنافى مع النبوة؛ لأن من شرائط النبوة أن يكون النبي المختار متصفًا بالصدق والأمانة؛ إذ من المحال أن يرسل الله للناس خائنًا أو كذابًا، بل يصطفيهم من صفوة خلقه ليبلغوا رسالة السماء كما أمروا دون نقص أو زيادة، مع عصمتهم من الزلل والخلل والنقائص المخلة بوظيفتهم السامية ودرجتهم الرفيعة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

ثانيًا- ذكرت التوراة في الإصحاحين التاسع والعشرين والثلاثين أن يعقوب فر أمام أخيه عيسو إلى بلد خاله «لابان» بمشورة أبيه وأمه، وبينما هو في طريقه إذ وجد رعاة يسقون الأغنام من بئر هناك؛ فسألهم عن خاله وعن سلامته؛ فأجابوه أنه بخير .. وبينما هم على هذه الحالة إذا بـ"راحيل" بنت خاله قد حضرت إلى البئر ومعها أغنامها؛ ففتح لها يعقوب البئر وسقى لها أغنامها ثم قبَّلها وعرَّفها أنه قريبها، وذهبت البنت إلى أبيها وأخبرته، فخرج مسرعًا، وعانق يعقوب وطلب منه أن يمكث معه في داره ليخدم له أغنامه.

فرضي يعقوب بشرط أن يزوجه راحيل التي أحبها حبًا شديدًا؛ فقبل لابان هذا الشرط، واتفقا على أن يقوم يعقوب بالخدمة سبع سنين، ولما انقضت المدة طلب يعقوب من خاله تنفيذ الشرط.

فأجابه إلى طلبه، ولكنه غشه؛ فقد كان له بنت أخرى ضعيفة البصر اسمها "ليئة"؛ فزفها له، ومكث معها الليل كله وهو يظن أنها راحيل حبيبته، فلما أصبح الصباح وعرف أنها ليئة ذهب إلى خاله وقال له: لماذا خدعتني؟

فقال له: إن ليئة هي البنت الكبرى، ومن عاداتنا أن نزوج الكبيرة قبل الصغيرة، ووعده بأن يعطيه راحيل بعد أسبوع بشرط أن يخدمه سبع سنين أخرى، فقبل يعقوب ذلك، واستولى على راحيل وتزوج بالأختين، ولكن ليئة كانت ولودًا، وراحيل محبوبته كان عقيمًا، فغارت راحيل، وطلبت من يعقوب أن يأتيها بنسل وإلا قتلت نفسها.

فقال لها يعقوب: هل أنا إله؟ وغضب غضبًا شديدًا.

فقالت له راحيل: تزوج "بلهة" جاريتي فتلد منك، ففعل، وولدت بلهة؛ ففرحت بذلك راحيل، وتعطلت ليئة عن الحبل، فطلبت من يعقوب أن يتزوج بجاريتها "زلفة"؛ فتزوج زلفة وحملت منه، ثم حبلت راحيل بعد العقم وولدت، وكذلك ولدت ليئة بعد ذلك وهكذا؛ فتكاثر أولاد يعقوب تكاثرًا كثيرًا.

كل ذلك وقع وهو في معاشرة خاله، وأخيرًا طلب يعقوب من خاله أن يقرر له أجرته من الغنم؛ ففعل، ثم طلب منه أن يعطيه نساءه وأولاده ليسافر إلى والده إسحاق؛ فلم يجبه إلى طلبه وقال له: إن وجودك معي بركة.

فأخذ يعقوب نساءه وأولاده، وساق ما خصه من أجرة وهرب، وقد كان لابان يعبد الأصنام، فسرقت ابنته راحيل آلهته، فلما عرف لابان اقتفى أثرهم ومعه إخوته، وكان يضمر الشر ليعقوب، ولكنه رأى الإله في المنام فأمره بألا يتعرض له بسوء.

وأخيرًا لحق به وعاتبه على هربه، وطلب منه الآلهة التي سرقها، فقال له إني لا أعلمها فتش الرحل ففتش فلم يجدها لأن راحيل أخفتها وجلست عليها وزعمت أنها حائض لم تستطع النهوض فتركهم لابان وانصرف. اـ هـ.

هذا الذي ذكرناه لم يخرج عن نص الإصحاحين قيد شعرة، وقد اكتفيت به خوف الإطالة ومآخذنا على هذه القصة المزعومة.

أولاً- هروب يعقوب.

ثانيًا- معاشرته للوثيين فترة طويلة ولم يثبت في الإصحاحين أنه نهي خاله عن عبادة الأوثان.

ثالثًا- أن يعقوب عليه السلام قد تزوج أربعة وأنه جمع بين الأختين مع عدم عدله ببين أزواجه كما أنه كان يحب راحيل أكثر من ليئة إلى

حد أن ليئة كانت تترقب أن يأتيها مرة واحدة فلم يفعل لأن راحيل كانت منفردة به.

وإليك نص ما ورد من ذلك في الإصحاح الثلاثين:

«... ومضى راوبين في أيام الحصاد الحنطة، فوجد لقاحًا في الحقل (وهو نبت يشبه الباذنجان)، وجاء به إلى لئية أمه.

فقالت راحيل لليئة: أعطني من لقاح ابنك.

فقالت لها: أقليل إنك أخذت رحلي فتأخذين لقاح ابني أيضًا؟

فقال راحيل: إذن يضطجع معك الليلة عوضًا عن لقاح ابنك.

فلما أتى يعقوب من الحقل في المساء، خرجت ليئة لملاقاته، وقالت إليَّ تجيء؛ لأني قد استأجرتك بلقاح ابني، فاضطجَع معها تلك الليلة... إلخ.

ويفهم من هذا الكلام أن ليئة صرحت لراحيل بأنها أخذت زوجها منها، وأنها لا تعطيها لقاح ابنها، فسمحت لها راحيل بأن ينام معها مرة في نظير شيء من اللقاح.

ويظهر من ذلك أن يعقوب كان يأتي ليئة في الخفاء خوفًا من راحيل، بدليل ما ورد في نفس ذلك الإصحاح، عدد ٢٠ ونصه:

فقالت ليئة: قد وهبني الله هبة حسنة، الآن يساكنني رجل لأنني ولدت له ستة بنين (بهذا نص صريح في أن يعقوب لم يكن يساكن زوجه ليئة، بل كان مقيمًا مع راحيل لحبه إياها).

ونقول لهؤلاء المبشرين: إن هذه افتراءات مكذوبة على يعقوب عليه السلام، فإنه غاب عنهم أن ما نسبوه إليه من الهرب يعتبر نقيصة في حقه لا تليق بمقام النبوة؛ إذ ليس من الوفاء أن يمكن مع خاله هذه الفترة الطويلة ويتزوج ابنتيه ثم يغادره خلسة دون أن يقدم واجب الشكر على الأقل أو يستسمحه في الذهاب إلى أبيه معتذرًا إليه، بأن والده في حاجة إلى معرفته، ولا يمكنه البعد عنه أكثر من مكثه معه، وغير ذلك من المبررات كان هذا هو الأنسب الذي يجب أن يقال على فرض صحة القصة.

من ناحية أخرى، إن الدعوة الأساسية للأنبياء هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبادة إله فرد صمد، فليس من المعقول أن تكون هذه هي دعوته، ثم يمكث معهم سبع سنين يراهم يعبدون الأوثان من دون الله وهو لا يزجرهم ولا ينهاهم، بل يحرك ساكنًا نحوهم.

وأما معاشرة يعقوب لزوجاته، فكانت تتسم بالرحمة والعدل وحسن العشرة، هذا هو ما يجب أن يتصوره العقل ويكره الإنسان المؤمن بالنسبة للأنبياء، لأن عدم القسمة بين الزوجات العدل ظلم، والظلم حرام يستحيل صدوره من الأنبياء، لأنهم دعاة خير وفضائل وأخلاق، ومعصومون من الرذائل والنقائض المخلة بشرف رسالتهم.

ثالثًا- ونسبت التوراة أيضًا إلى يعقوب عليه السلام وأهل بيته من الفوضى الخلقية ما لا يصح صدوره من أسوأ الناس خلقًا وأرذلهم طبعًا.

منها ذكر في الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين من راوبين بن يعقوب الأكبر زنا بامرأة أبيه "بلهة"، ولما علم أبوه بذلك لم يعاقبه، بل كان ما صنعه يعقوب أنه دعا عليه عند موته!

وذكر في الباب الثامن والثلاثين من ذلك السفر أيضًا، وهو أن يهوذا بن يعقوب زنا بامرأة ابنة المتوفى، واسمها "ثامار"، فأحبلها بولدين: أحدهما جد داود، والآخر جد عيسى عليهما السلام.

وقد علم نبي الله يعقوب بذلك ولم يغضب على يهوذا ولم يذمُّه، بل مدحه مدحًا كبيرًا عند موته!!

ومن طرائف توراتهم أنها قالت إن يهوذا مدح "ثامار" بعد أن زنا بها، وقال إنها بارة أكثر مني، وأقرت هذا المديح، كأن جريمة الزنا لا قيمة لها في نظر هؤلاء الأطهار!

ونقول لهؤلاء المبشرين بالتوراة: أما كفاكم هذياناً وطعناً في نبي من أنبياء الله؟ ألم تكن لكم حرفة ولا صناعة إلا التفنن في الاعتداء على كرامة الأنبياء وانتهاك حرماتهم ورمي أعراضهم بالفحش والفجور؟

عجبًا لهؤلاء القوم، يفخرون بأنهم من نسل يعقوب ومن أمته ونالوا شرف رسالته، ثم يقذفونه وأهل بيته بأحط الجرائم الخلقية وأقذرها! ا.هـ.

الشبهات الواردة في حق أيوب عليه السلام

قال البستاني في «دائرة المعارف» ص ٨٠٤ من المجلد الرابع: إنه رجل مشهور بالاستقامة والتقوى والصبر، ولذلك لقب بالصديق وضرب به المثل في الصبر ا.هـ.

وأيوب عليه السلام نبي من الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم، وكان جوادًا كريمًا عطوفًا على المساكين رحيمًا بالأرامل والأيتام، تقيًا ورعًا كثير الرجوع إلى الله تعالى شاكرًا لأنعمه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سُمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال من أحواله، وقصته المذكورة في القرآن الكريم ويرددها الناس على ألسنتهم، خاصة عندما يشتد بهم البلاء وتنزل عليهم المحن لتدل دلالة واضحة على قوة إيمانه وجَلده وصبره في أقسى حالات سقمه، راضيًا بقضاء الله وقدره، ولم يدب اليأس طرفة عين إلى نفسه، ولم يدخل القنوط والجزع قلبه، بل صمد كالجبل الأشم لا تحركه الريح ولا يذهب به السبل، بل كلما اشتد بلاؤه ذكر فضل الله عليه ومنحه العظيمة إليه؛ فيلهج لسانه بذكره وفؤاده بشكره؛ لذلك مدحه مولاه بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، ولذلك أيضًا قربه إليه وأدناه من حظيرة قدسه وجعله نبيًّا لصفاء روحه وعظيم إخلاصه وامتثاله لأمر ربه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ــ ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١ ــ ٤٤].

شكوى أيوب عليه السلام

كيف وجده مولاه صابرا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤]، وكيف شكا إليه في قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ... ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؟

الجواب:

أولاً- إنه شكا من الشيطان وما شكا منه إلى أحد.

ثانيًا- إن الشيطان عدوه، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر.

ثم قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وهذا المدح والثناء يدل على أن تشريف «نعم العبد»، إنما حصل لكونه «أوابًا».

قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسًا غاصًّا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء، وبيانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء؛ فاستحسنوه وارتضوه..

وسئل الجنيد رضي الله عنه من هذه الآية فقال: «عرفه فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال».

وروي عن أنس مرفوعًا أن أيوب عليه السلام: وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض؛ فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرّ»، إخبارًا عن حاله لا شكوى على بلائه، كما يصح أن يكون إقرارًا منه بالعجز.

وإذا علم هذا فإن قول أيوب: «إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ»، لم يكن جزعًا منه بما أصابه في بدنه وماله وولده ولا شكاية، بل كان ذلك دعاء منه، والجزع لا يكون إلا في الشكوى إلى الخلق لا إلى الخالق، والدعاء لا ينافي الرضا.

الضُر الذي أصاب أيوب

قال العلامة الفخر الرازي: اعلم أنه قد حصل عند أيوب نوعان من المكروه والغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات والآلام الشديدة في الجسم، ولما حصل هذان النوعان لا جرم ذكر الله تعالى لفظين وهما: "النصب والعذاب".

مسَّني الشيطان

هل حقيقة أن ما أصاب أيوب إنما كان بفعل الشيطان كما قال؟

الجواب: قيل إنها حصلت بفعل الله، والعذاب المضاف في هذه الآية الكريمة إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة وإلقاء الخواطر الفاسدة؛ وذلك لأن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام.

والدليل على ذلك ــ كما قال الفخر الرازي ــ من وجوه:

الأول- إنا لو جوَّزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل ما حصل عندنا من الخيرات قد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن يعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى.

وأقول: وبالتالي يكون الشيطان هو المتصرف في الكون دون الله تعالى، وهذا خلاف الحقيقة؛ لأن الشيطان مخلوق ضعيف من خلق الله، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فكيف بملك الله تعالى؟

الثاني- إن الشيطان لو قدر على ذلك فلِمَ لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء والصالحين؟ ولِمَ لم يخرب ديارهم ويقتل أولادهم لأنهم ألد أعدائه؟

الثالث- إنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» [إبراهيم: ٢٢]؛ فصرح بأنه لا قدرة له على البشر إلا بإلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة المضلة.

فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟

قلنا: فإذا كان لابد من الاعتراف بأن الله تعالى هو خالق تلك الأسقام، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك «مَسَّنِيَ الشَّيطَانُ»؟ بل الحق أن المراد من قوله: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، بسبب إلقاء الوساوس والخواطر المضلة، كأنه يلقيه في أنواع العذاب والعناء.

وساوس الشيطان

قال بعض العلماء إن علة أيوب كانت شديدة، ثم طالت مدة علته وابتعد الناس عنه، ولم يبقَ له شيء من ماله وولده إلا امرأته التي كانت تقوم بخدمته وتسهر بجواره لتخفف آلامه وتواسيه في بلائه، وقد ظلت امرأته تعمل لتوفر له القوت وهي صابرة على شقائها وصحتها، إلى أن اشتد بها الأمر، ومنع الناس زوجه من مخالطتهم والاشتغال عندهم، وفي

هذه الحالة كان الشيطان اللعين يذكّره بماضيه وما كان فيه من نعمة الصحة والمال والولد والعبيد، كما يذكره بالخطوب والآفات التي ألمَّت به رجاء أن يجزع أو يسخط على قضاء الله فيحل عليه غضبه ومقته ويحرمه ثواب بلائه.

وكان أيوب عليه السلام يحتال في دفع تلك الوساوس الخبيثة، فلما قويت في نفسه خاف ولجأ إلى الله وتضرع إليه ملحًّا؛ إذ لا ملجأ له سواه؛ فقال: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١].

وقيل: إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات، فذكرت له امرأته ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان قد طمع في دينه؛ فشقَّ ذلك عليه، فتضرَّع إلى الله تعالى وقال: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١].

ما نوع المرض الذي أصاب أيوب؟

إن المرض الذي ابتلي به سيدنا أيوب عليه السلام لم يصل به إلى نفرة الناس منه واستقذارهم له أو انصرافهم عنه، وإن ما يذكره القصَّاص وما هو موجود في «سفر أيوب» من تآكل جسده وتناثر الديدان من بدنه يتنافى مع منصب النبوة.

وقد قرر علماء الكلام أن كل نقص بشري يخل برسالتهم ويؤدي إلى نفرة الناس منهم يستحيل عليهم، وذلك كالظلم والغدر وحلف الوعد ونقض العهد ودناءة الأصل والجنون والجذام والبرص، كما يستحيل الكذب والخيانة والكتمان والبلادة.

والدليل على استحالة هذه الأمور على الرسل أنها نقائص تخل بوظيفتهم وتذهب بفائدتها، وكل ما يخل بالرسالة فهو مستحيل والرسل منه معصومون، فثبت أن أيوب عليه السلام لم يبلغ به المرض إلى الصورة البالغ فيها، ومن الجائز أن يكون ما حصل لأيوب من الإسقام حقيقة، إلا أن ذلك كان قبل النبوة، وهذا لا تعارض فيه.

وإن الله سبحانه وتعالى قد كافأة بمنحه النبوة لما رآه عليه من الصبر والرضا ولزومه جانب الحمد والشكر.

والمبالغون في ضر أيوب إنما اعتمدوا فيما يقولون على ما جاء عند أهل الكتاب (سفر أيوب)، وإذا ثبت أن هذا السفر حقيقي فعبارته مؤولة؛ ففي هذا السفر ما نصه:

«فخرج الشيطان من حضرة الرب، وضرب أيوب بقرح رديء في باطن قدمه إلى هامته، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد» (ص٢ ــ سفر أيوب).

«... لأنه مثل خبزي يأتيني أنيني، ومثل المياه تنسكب زفرتي» (ص٢ آية ٢٤).

«... قد كرهت نفسي حياتي، أسبب شكواي أتكلم في مرارة نفسي»..

«... وأنا كمسوس يبلي كثوب أكله العث».

قرءوا ذلك فحسبوه على وجه الوصف الحقيقي، ولو تدبروا لعلموا أن سفر أيوب يشبه قصائد شعرية قيلت في وصف ضره وصبره، والشعر في كل لغة ميدان المبالغة.

قال عمر بن الفارض:

فَطُوفَانُ نُوحٍ عَنْ نُوحِي كَادَ مَعِي

وَإِيقَادُ نِيرَانِ الخَلِيلِ كَلَوْعَتِي

فَلَوْلا زَفْرَتِي أَغْرَقَتْنِي مَدَامِعِي

وَلَوْلا دُمُوعِي أَحْرَقَتْنِي زَفْرَتِي

ومثله قول المتنبي:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُل

لَولا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

عطاء الله لأيوب عليه السلام

قال تعالى:

﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ [ص: ٤٣].

يُفهم من ظاهر الآيتين السابقتين أن الله تعالى رد عليه أهله ومثلهم معهم، وهذا هو الأولى، فلا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقال الحسن: المراد بـ"هبة الأهل" أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا، ثم قال: ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾، أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم.

ثم قال: ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٤٣]، أي سلطنا عليه البلاء أولاً فصبر، ثم أزلناه عنه وكافأناه بالنعم والآلاء، تنبيهًا للخلق بأن من صبر ظفر، وليس في إحياء ولد أيوب ببعيد؛ إذ أن قدرة الله تعالى صالحة لكل شيء .. ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

والقرآن الكريم به شاهد على هذا قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

في هذه الآية الكريمة أخبر الله نبيه محمدًا ﷺ عن جماعة من البشر، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم ومن أتي بعدهم أن الإماتة والإحياء بيد الله لا بيد سواه، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر.

وكذلك قصة أصحاب الكهف من أدلة أصحاب هذا الرأي .. قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

وقال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوب عليه السلام: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئت تركناهم لك في الجنة، وإن شئت آتيناك بهم في الدنيا.

قال مجاهد: فتركهم الله عز وجل له في الجنة، وأعطاه مثلهم في الدنيا.

قال النحاس: والإسناد عنهما.

حِلف أيوب عليه السلام على زوجته

قال البيضاوي: روي أن زوجة أيوب عليه السلام ذهبت لحاجة، فأبطأت؛ فحلف إن بَرئ ليضربنها مائة ضربة، فجعل الله له تحلة لقسمه، وهو أن يأخذ حزمة من حشيش ويضربها بها تحلة لقسمه ورحمة بزوجه جزاء إخلاصها وصبرها ووفائها، وهي رخصة باقية في الحدود.

وقيل: بلغت أيوب مقالة الشيطان لها "إن قالها برئ من مرضه"، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ (ومقالة الشيطان هي قوله: «لو أطاعني زوجك لأزلت عنه هذه الآفات»)، ثم استغفر ربك يغفر لك .. أو جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز والطعام؛ فظن أنها ارتكبت محرمًا فحلف.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[1] فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

علاج أيوب عليه السلام بالدواء الإلهي

قالت تعالى: ﴿ارْكُضْ[2] بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

ظاهر لفظ الآية الكريمة يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء، اغتسل فيه وشرب منه، والمفسرون يقولون نبعت له عينان، اغتسل من

[1] – الضغث: الحزمة الصغيرة من الحشيش أو ريحان أو قضبان.

[2] – اركض برجلك: الركض هو الدفع القوي بالرجل، ومنه ركضك الفرس – دفعك.

واحدة وشرب من الأخرى؛ فذهب الداء من ظاهره وباطنه بدواء السماء وطبيبها.

فهذه هي أصح الآراء التي ذُكرت في قصة أيوب عليه السلام لإعلام المحققين من المفسرين التي تتفق وجلال هذا النبي الكريم وزوجه التي ضربت المثل الأعلى في الإخلاص والوفاء.

وكل ما ذكر خلاف ما رويناه في هذا الموضوع فإما أن يكون افتراءات لم يصح نقلها أو غلو لا يحتاج إليه، وغير ذلك مما يطمس معالم الحقائق ا.هـ.

الشبهات الواردة في حق موسى عليه السلام

موسى رسول بني إسرائيل

حتى موسى رسولهم عليه السلام الذي أرسل إليهم لم يسلم من شرهم ومن مقالة السوء فيه وفي أخيه هارون.

ونقول لهم إن التوراة التي نسبتم فيها إلى رسولكم الخيانة وارتكاب الجرائم عمدًا، أهي الكتاب الذي جاءكم به موسى أم الكتاب الذي كتبتموه بأيديكم؟

فإن قلتم إنها التوراة التي جاءنا بها موسى فقد كذبتم عليه وافتريتم؛ لأن موسى عليه السلام بلَّغ رسالة ربه كما أُمِر، ولم يثبت أنه قصَّر أو خالف أمر ربه، ولو صدر منه شيء من ذلك لذُكر في القرآن الكريم، ولعجَّل الله له بالعقوبة.

بل على العكس من ذلك، فقد سجل له القرآن الكريم مواقف خالدة وصبرًا جميلاً في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد، ولاقى من إيذاء قومه وعنتهم وشدة بأسهم وجبروتهم ما لم يلقَ من قبله ولا بعده؛ فصبر على ما كذب وأوذي، ولطغيانهم وتماديهم في الباطل أرسل معه أخاه هارون ليعاونه في هداية هؤلاء القوم الضالين.

وهذا هو ما نسبته توراتهم في الباب الثاني والثلاثين عدد (٤٨١) وما بعده من سفر الاستثناء ما نصه:

«وكلَّم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً اصعد إلى جبل عباريم، هذا جبل بنو إسرائيل الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا، وانظر كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ملكًا وقفت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور، وضم إلى قومه لأنكما "خنتماني" في وسط بني إسرائيل عندما مريبة قادش في بحر به إذا لم تقدساني في وسط بني إسرائيل فإنك تنظر الأرض قبالتها ولكنك لا تدخل هناك... إلخ».

فكيف برسل الله أنبياء خائنين؟

ألم يعلم الله بحالهم قبل إرسالهم؟

فإن كان عالمًا فكيف أرسلهم؟ وإن كان غير عالم فقد نسبوا الجهل إلى الله سبحانه وتعالى، والجهل على الله سبحانه وتعالى محال.

وورد في الباب العشرين من سفر الخروج أن موسى طلب من ربه أن يعفيه من الرسالة، وألح عليه في ذلك .. وإليك النص: «فقال موسى أرغب إليك يارب أن ترسل من أنت ترسل؛ فاشتد غضب الرب على موسى».

لقد حسبوا أن قبول الرسالة اختيارى للمرء أن يقبل أو لا يقبل، وغاب عنهم أنه تكليف بأمر الله رب العالمين.

وكيف يجرؤ موسى عليه السلام على طلب الإعفاء من الله تعالى والإلحاح عليه وهو أعرف بمقام مولاه وعزته وجلاله؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وحاشاه موسى عليه السلام أن يقول ذلك.

ويا ليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد، بل قالوا إن هارون عمل على إحياء الوثنية، وهذه ردة صريحة نسبوها إليه.

ونسوا أن هارون نبي معصوم، نصحهم وزجرهم ونهاهم عن عبادة العجل والأوثان، وتحمل من العنت والإيذاء في سبيل تلك الدعوة، وكيف نهاهم عن عبادة العجل ثم يدعوهم إليها؟! أليس هذا تناقضًا في كلامهم ودليلاً قاطعًا على كذب ما يقولون.

ولقد سجل القرآن الكريم لموسى وهارون قصتهما مع بني إسرائيل وكررها في أكثر من تسع عشرة سورة، مادحًا لهما ومنزهًا عما نسبته إليهما التوراة.

الشبهات الواردة في حق موسى عليه السلام

شبهة: قتل موسى للقبطي.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

القصة: كان القبطي الذي قتله موسى طباخاً لفرعون، فاشترى حطبًا، فمر به فتى من بني إسرائيل ممن كان يجالس موسى، فجذبه القبطي ليحمل الحطب فامتنع واستنجد بموسى، فقال له موسى: اخلِ سبيله، فأبى القبطي، فوكزه موسى في صدره فقتله، فندم على قتل القبطي خوفاً من الله وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

قال مقاتل: كان الرجلان كافرين، إلا أن أحدهما من بني إسرائيل والآخر من القبط.

والمشهود أن الذي كان من شيعته كان مؤمنًا، لأنه لا يقال فيمن يخالف الرجل في دينه إنه من شيعته.

وتقرير الشبهة: كيف أقدَم موسى عليه السلام على قتل نفس بريئة لم تسئ إليه ولم ترتكب جرمًا في حقه؟ فإن المقتول أما أن يكون مستحقًا

للقتل أو لا، فإن كان مستحقًا للقتل فلم قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٥ ــ ١٦] ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

وإن كان غير مستحق للقتل كان موسى عاصيًا بقتله.

الجواب: يحتمل أن يقال إنه لكفره كان مستحقًا للقتل.

ويحتمل أيضًا أن موسى عليه السلام لم يقصد قتله، وإنما قصد تخليص الإسرائيلي من القبطي؛ فأدى ذلك إلى القتل من غير قصد.

وأما قوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، ففيه وجوه:

الأول- لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال الأولى، فأخَّر قتلهم إلى زمان آخر فلما قتله موسى فقد ترك ذلك المندوب، فقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان.

الثاني- إن قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه، أي: عمل هذا المقتول من عمل الشيطان.

والمراد منه بيان كونه مخالفًا لله تعالى مستحقًا للقتل.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وذلك على نهج قول آدم عليه السلام ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، والمراد أحد

وجهين: إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب قط.

أو من حيث حرمان نفسه من الثواب بترك المندوب، وعليه يكون معنى «فَاغْفِرْ لِي﴾، أي ترك هذا المندوب.

وما قوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، فلم يقل إني صرت بذلك ضالاً، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرًا إلى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرًا في ذلك الوقت، فاعترف بأنه كان ضالاً، أي متحيرًا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يريده في ذلك والله أعلم.

شبهة «إنك لغوي مبين»

تقريرها: أن يقال: كيف قال موسى لمن استغاث به: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]؟.

الجواب: إن قوم موسى كانوا غلاظًا جفاة، ألا ترى إلى قولهم بعد أن أقام لهم موسى الحجج والبراهين على صدق دعواه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، وكان المراد ذلك.

شبهة اعتذاره عن التبليغ

لما قال الله تعالى لموسى: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، فلم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى

هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٢ ــ ١٣]، وهذا اعتذار عن تبليغ ما أُمِر بتبليغه، وهو مخالفة لأمر الله تعالى، فكيف ساغ لموسى ذلك؟

الجواب: ليس هذا اعتذار عن الرسالة، ولكنه إذن من الله تعالى في أن يسأله ضم أخيه إليه ليشد أزره ويكون له عونًا ومساعدًا.

قال الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩ ــ ٣١]، فأجابه مولاه إلى طلبه فقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وكان في ذلك السؤال مأذونًا فاندفع السؤال.

شبهة السَّحرة

تقريرها: كيف جاز لموسى أن يأمره السحرة بإلقاء الحبال والعصي، وذلك تلبيس وكفر، والأمر بمثله لا يجوز؟

الجواب: إن ذلك الأمر كان مشروطًا، والتقدير: "ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين"، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي: "إن كنتم قادرين".

وأيضًا لما تعين طريقًا إلى كشف الشبهة صار جائزًا.

شبهة: «فأوجس في نفسه خيفة موسى»

وتقرير الشبهة: إن خوف موسى يقتضي أنه شاك فيما أتى به.

الجواب: لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس؛ فأمَّنه الله منه وبيَّن أن محجتة تتضح للقوم .. قال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

شبهة: الأجر على صنع المعروف

كيف قبل موسى الأجر على صنع المعروف؟

وتقرير الشبهة أن يقال: لماذا ذهب موسى عليه السلام مع ابنه شعيب عليه السلام إلى أبيها ليأخذ أجرة سقائه لابنتثه؟ وكيف قبل هذا مع منافاته لمقام البنوة ومروءة مثله؟

الجواب: لعل سيدنا موسى عليه السلام بذهابه معها إلى أبيها لم يكن طلبًا للأجرة، بل للتبرك بذلك الشيخ.

وروي أنها لما قالت له: «لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا» [القصص: ٢٥]، كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف أجرًا.

قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا.

أو أنه لبى دعوة شعيب لأن الجوع قد بلغ بموسى مبلغه، وأصبح في حال لا يتحمله، خاصة وأنه كان في سفر ولم يكن معه طعام ولا شراب.

قال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعامًا إلا بقل الأرض، وعليه فالضرورات تبيح المحظورات.

شبهة: موسى وابنة شعيب

كيف سار موسى مع ابنة شعيب وهي أجنبية عنه ومحرمة عليه، والسير مع الأجنبية والاختلاء بها حرام؟

الجواب: حقًا، إن السير مع الأجنبية حرام، ولكن مع التورع والاحتياط لا بأس به.

روي أن الفتاة لمَّا سارت أمامه وكادت الريح أن تكشف ثيابها أمرها بالسير خلفه، وهذا غاية الورع، مع ملاحظة أن السير مع الفتاة بهذه الطريقة لا تعد سيرًا مع أجنبية لأنها كانت تابعة له في مسيره وبمنزلة الدليل له.

شبهة: كيف ألقى موسى الألواح؟

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا[1] قَالَ بِئْسَمَا[2] خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ[3] أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ[4] وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ[5] قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

---

[1]- أسفًا: قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب.

[2]- بئس ما صنعتم بعد تركي لكم من عبادتكم للعجل.

[3]- استعجلتم مجيئه إليكم وهو مقدور من الله تعالى.

[4]- الألواح: قيل من زمرد وقيل من سدر، وكان مكتوب فيها شريعة موسى عليه السلام.

[5]- خوفًا من أن يكون قد قصَّر في نهيهم.

القصة:

يخبرنا الله تعالى بأن موسى عليه السلام لما رجع إلى القوم من مناجاة ربه، ورآهم عاكفين على عبادة العجل المصنوع من الذهب؛ غضب ورمى باللوحين اللذين كانا في يده ومكتوب فيهما شريعة بني إسرائيل، ولام موسى أخاه هارون لومًا شديدًا على ما صنعه بنو إسرائيل أمامه من عبادة العجل، مع أن هارون عليه السلام لم يقصر في زجرهم ومنعهم بل قال لهم: «**إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي**» [طه: ٩٠]، فلم يلتفتوا إليه لما تعلقت به قلوبهم من حبهم للعجل ولماهم عليه من الكفر.

ولما أبدى هارون اعتذاره لأخيه موسى عليهما السلام، بأن شعب إسرائيل شعب شرير، وأنه لم يقوَ على مقاومتهم ودفعهم؛ سكن الغضب عن موسى، وأخذ الألواح التي ألقى بها .. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وصفح عن أخيه بعد أن عرف الحقيقة فدعا بالمغفرة له ولأخيه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

الجواب:

قال جمهور العلماء سلفًا وخلفًا: إنما ألقى موسى عليه السلام الألـــواح غضبًا على قومه لكفرهم وشركهم، وغيرة لله تعالى على شدة جـــرحهم وقبح أعمالهم، ولم يلق بها استهانة بها، حاشاه من ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يـــرحم الله موسى ليس المعاين كالمختبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم على تلك الصورة المشينة ألقى الألواح**».

شبهة اعتدائه على أخيه

كيف اعتدى موسى على أخيه مع أن هذا يتنافى مع مقام النبوة؟

وتقرير هذه الشبهة أن يقال: إما أن يكون هارون قد صدر منه الذنب بتقصيره في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل ما اســـتحق بـــه ذلـــك التأديب، أو لم يصدر عنه.

فإن كان صدر منه فقد صدر الذنب، وهذا يقدح في عصمته لأنه نبي، وإن لم يصدر منه فقد صدر من موسى لاعتدائه على أخيه بدون وجـــه حق.

وأيضًا فلأن هارون نهى موسى في قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]، فإن كان موسى مصيبًا فيما فعله كان هارون عاصيًا في منعه من فعل الصواب، وإن كان هارون مصيبًا في ذلك المنع كـــان موســـى عاصيًا في ذلك الفعل.

الجواب: إن موسى عليه السلام أقبل وهو في أشد حالات الغضب على قومه لخروجهم عن طاعته، فإن المفكر الغضبان قد يعض على شفتيه ويقلب كفيه على حليته، فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه؛ لأنه كان شريكه؛ فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب.

وأما قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ [طه: ٩٤]، فلا يمتنع أن يكون هارون خاف أن يتوهم بنو إسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له، ثم أخذ في شرح القصة.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤]، أو أن بني إسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام، حتى إن هارون عليه السلام غاب عنهم غيبة، فقالوا لموسى: أنت قتلته.

فلما واعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وكتب له في الألواح من كل شيء، رجع فرأى في قومه ما رأى؛ فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة؛ فخاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له، فقال إشفاقًا على موسى: "لا تأخذ بلحيتي لئلا يظن القوم بك ما لا يليق".

قال تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

أي لا تصنع معي ما يسرهم ويشفي غيظهم، ولا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم، فلما تحقق لموسى عليه السلام براءة هارون عليه السلام دعا له ولنفسه بالرحمة والمغفرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]..

فعند ذلك قال موسى: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [الأعراف: ١٥١].

قصة شعيب عليه السلام

قال المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء»:

كنت قد قرأت في ج/٤ ص ١٦ من كتاب «صبح الأعشى» لأبي العباس أحمد القلقشندي، عبارة تفيد الجزم بأن شعيبًا عليه السلام، كان زمنه بعد زمن موسى عليه السلام بعدَّة قرون، وأن وجوده كان في أوائل القرن الثامن بعد موسى عليه السلام.

ونص عبارته: ثم ملك بعده ــ يعني يوثام ـــ ابنه آحاز ست عشرة سنة أيضًا، وكانت الحرب بينه وبين مالك دمشق، وفي زمنه كان شعيب ا.هـ.

ولكن تبين لي أن ذكر «شعيب» في كلام القلقشندي خطأ، وأن الصحيح «شعيا».

أما شعيب فقد كان زمنه قبل موسى عليه السلام، فإن الله جل ذكره لما ذكر نوحًا ثم هودًا ثم صالحًا ثم لوطًا ثم شعيبًا، قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

ولبيان الحق وإعطاء كل ذى حق حقه أقول: الذي وجَّه نظرى إلى ذلك هو فضيلة العالم المحقق المرحوم الشيخ عبد الفتاح خليفة ا.هـ، وهو الأقرب إلى الصواب أن لم يكن عين الصواب لأنه المشهور والمعتمد عند أكثر علماء المسلمين.

وأما قومه فهم شعب مدين بن إبراهيم، وقد كانوا نزولاً في بلاد الحجاز – مما يلي الشام – وكانوا في رغد من العيش والنعيم لأنهم كانوا من أرباب التجارة، وكانوا يعبدون الأصناف ويفعلون المنكر ويظلمون الناس حقوقهم ويأكلون أموالهم بالباطل بنقصهم المكيال والميزان وبما كسب الناس في سلعهم.

ولما تمادوا في ضلالهم أرسل الله إليهم شعيبًا ليدعوهم إلى عبادة الإله الواحد الأحد، وينهاهم عن الظلم والفساد في الأرض، ويحذرهم بأس الله بهم وغضبه عليهم وانتقامه منهم إن لم يرجعوا عما هم فيه من فسوق وعصيان.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ولكنهم صموا آذانهم واستمروا في طغيانهم، وأخذوا يقعدون على الطريق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين ويعيبون طريقته ويوعدون من آمن به شرًّا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

وكان شعيب عليه السلام بارعًا في دعوتهم ومحاجاتهم، ولهذا يسميه المفسرون «خطيب الأنبياء»، ومع هذا فقد كان قومه يقولون له مع بيانه وفصاحة لسانه: «يا شعيب، ما نفقه ما تقول»، ويحتقرون شأنه بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]، ظنًّا منهم أن القوة ميزان الصدق في القول، وهو ضلال منهم، ثم يتهددونه بقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وأخذوا يحذرون شعبهم من الوقوع في دين شعيب قائلين لهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، أي الزيادة في ثرواتكم، ولما أخرجهم شعيب بدعائهم إلى ما لا يريدون من الإيمان بالله وحسن المعاملة والاستقامة في أمورهم؛ اجتمعوا وهددوه هو وأتباعه بإخراجهم إذا لم يعودوا في دين قومهم.

فراجعهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، أي بالهداية، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـــ ٨٩]، أي العود في ملتكم ليس بملكنا، ولكن ذلك

يكون إذا أراد الله خذلاننا وإبعادنا عما جاءنا به من الحق، وهذا ما لا سبيل لنا إلى علمه، وإنما بعلمه الذي وسع كل شيء علمًا، وهو الذي نتوكل عليه وحده.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨ ــ ٨٩].

ولما أصروا على موقفهم من دعوة شعيب، وبالغوا في سفههم، وطالبوه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء نرى قطعة منها ــ أن كنت صادقًا فيما تقول .. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٦ ــ ١٨٨].

فكان عاقبة تكذيبهم له وتصديهم لرسالته أن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم الغمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس وقيظ الحر الشديد اللافح؛ فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وإلى هذا تشير الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٨٩ ــ ١٩١].

الشبهات الواردة في حق شعيب عليه السلام

الشبهة الأولى:

كيف أرسل شعيب ابنته إلى رجل أجنبي وهو لا يعلم شيئًا عن حالة، وفي هذا أيضًا تعريض ابنته للمخاطر؟

الجواب: لعل شعيبًا علم حال سيدنا موسى عليه السلام عن طريق الوحي، أو فهم من جميل صنعه مع ابنتيه عفته ونزاهته ومروءته، ومثل هذا يكون أمينًا مأمونًا، خاصة وقد أخبرته إحدى ابنتيه بما ملأ نفسه ثقة وطمأنينة من جانبه.

الشبهة الثانية:

قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

وتقريرها: كيف تجوز في الصداق التخيير؟ وأي فائدة للبنت فيما شرطه هو لنفسه وليس يعود عليها من ذلك نفع؟

الجواب: من وجهين:

الأول- يجوز أن تكون الغنم كانت لشعيب عليه السلام، وكانت الفائدة لاستئجار من يرعاها عائدة إليه، إلا أنه عوض ابنته من قيمة رعيتها؛ فيكون ذلك رعيًا لها.

وأما التخيير فلم يكن إلا فيما زاد على ثماني حجج، وذلك الزائد لم يكن من الصداق، ويجوز أيضًا أن تكون الغنم للبنت وكان الأب متوليًا لأمرها قابضًا لصداقها.

الثاني- يجوز أن يكون من شريعته العقد على التراضي من غير صداق معين، ويكون قوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧]، على غير وجه الصداق.

الشبهة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]

فاعترف شعيب على أنه تعالى نجَّاه من ملتهم التي هي الكفر، ولا يعود فيها، والعائد إلى الشيء هو من كان فيه فيرجع إليه بعد مفارقته، وكذلك سبيل النجاة.

الجواب: العود إلى الشيء قد يستعمل فيما لم يكن فيه قط، فإن الله تعالى سمى القيامة معادًا وإن لم تكن فيها، وكذلك النجاة، قد تستعمل فيما لم تكن فيه؛ فإن السالم مما ابتلي به غيره قد يقول: «الحمد لله الذي نجانا مما ابتلى به فلانًا».

قصة داود عليه السلام
وما أثاره حولها المستشرقون
الشبهات الواردة في قصة داود عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ[1] الْخَصْمِ[2] إِذْ تَسَوَّرُوا[3] الْمِحْرَابَ[4] * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى[5] بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[6] وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً[7] وَلِيَ نَعْجَةٌ

---

[1]- نبأ: خبر.

[2]- الخصم: قال الواحدي: الخصم مصدر خصمته اخصمه خصمًا، ثم يسمي به الاثنان والجمع، ولا يثنى ولا يجمع، يقال هما خصم وهم خصم، كما يقال هما عدل وهم عدل، والمعنى: ذوا خصم وذو خصم، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه الصلاة والسلام.

[3]- تسوَّروا: يقال تسورت السور تسورًا إذا علوته، ومعنى تسوروا المحراب أي أتوه من سور هو أعلاه.

[4]- المحراب: المراد منه البيت الذي كان داود عليه السلام يشتغل فيه بطاعة ربه، وسمي ذلك البيت بالمحراب لاشتماله عليه كما يسمي الشيء بأشرف أجزائه.

[5]- بغى: أي تعدى وخرج عن الحد، ويقال بغت المرأة إذا زنت؛ لأن الزنا كبيرة منكرة.

[6]- لا تشطط: يقال شطا الرجل إذا بعد، ومنه شطت الدار إذا بعدت، قال تعالى: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي قولاً بعيدًا عن الحق.

[7]- النعجة: قال الليث: النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية، والجمع «نعجات»، والعرب جرت عاداتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة.

وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[1] وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ[3] لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢١ ــ ٢٥].

بيان ما اشتملت الآيات من مسائل

المسألة الأولى:

من هم الخصم الذين تسوروا على داود المحراب؟

الأولى أن يراد بالخصم في الآية الكريمة الرجلان اللذان تسورا عليه المحراب وادعيا قصة مختلقة وهي المذكورة في الآيات: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ. . . ﴾ إلخ [ص: ٢٣].

روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه لمناجاة ربه والعكوف على عبادته؛ فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقوامًا

---

[1]- أكفلنيها: قال صاحب الكشاف: اكفلينها حقيقة اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، أي أقوم بما يصلحها من طعام وشراب وحسن رعاية.

[2]- عزني في الخطاب: أي غلبني، يقال عزه يعزه، والمعنى: جاءني بحجج لم اقدر أن أورد عليه ما أرده به.

[3]- الخلطاء: الشركاء.

يمنعونه منهم؛ فخافوا على أنفسهم، فقالوا كذبًا: «**بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض**... إلخ».

قلت: والأولى كما قال بعض المفسرين، حمل الخصم في الآية على الرجلين؛ لأن حملها على الملكين يؤدي إلى صدور الكذب منهما ووصفهما به، والكذب غير جائز في حق الملائكة؛ إذ الملائكة لا يفعلون شيئًا إلا بأمر مولاهم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ولقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وأما من قال إن الخصم المذكور في الآية هما الملكان، قال: إنما ذكر هذه الواقعة على سبيل التمثيل وليس على سبيل التعريض بداود عليه السلام، كما نسب إليه بأنه كان تحته تسع وتسعون امرأة... إلخ، كما سيأتي توضيح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

المسألة الثانية:

فتنة داود ﴿إِنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

الفتنة التي ابتُلي بها داود عليه السلام كما قال الفخر الرازي، أن أعداءه عندما دخلوا عليه لطلب قتله دعاه غضبه إلى أن يشتغل بالانتقال منهم، إلا أنه أسرع بالصفح عنهم والتجاوز عما بدا منهم طلبًا لمرضاة

الله تعالى، وقد ندم على ظنه بهم، فاستغفر ربه وخر راكعًا كما قال تعالى في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب إلى الله تعالى في طلب المغفرة، لذلك الداخل القاصد قتله، وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥]، أي ما كان به من الهم والعزم، وكان هذه الحادثة هي الفتنة؛ لأنها جارية مجرى الابتلاء.

إذا علم هذا فما عملت عليه الآية الكريمة هو الصواب والأحوط من أن يُنسب إلى نبي من الأنبياء ما لا يصح أن ينسب إلى أفسق الفساق.

وأما ما قيل عن داود عليه السلام إنه كان تحته تسع وتسعون امرأة، ولما وقع نظره على امرأة قائد جيشه «أوريا»، تاقت نفسه إليها وشغف حبًا بها؛ طمع في زواجها، ولا سبيل له إلى ذلك بطبيعة الحال إلا بالتخلص منه؛ فأرسله إلى ميدان القتال ليصل إلى مأربه.

وأدنى نظرة إلى تلك القصة ندرك على الفور اختلافها، وأنها من نسج الخيال، يستحيل صدورها ممن له أدنى شيء من العلم والخلق والدين، فضلاً عن الأنبياء الذين اصطفاهم الله وعصمهم، وكيف يحدث منه هذا وقد ادخر الله له عنده أعظم الجزاء .. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

وقد أوجب الشارع إقامة الحد على كل من يتحدث بحديث داود عليه السلام..

عن سعيد بن المسيب والحارث الأعور، أن عليًا رضي الله عنه قال: «من حدثكم بحديث داود ــ عليه السلام ــ على ما يرويه القصاص؛ جلدته مائتين وستين جلدة»، وهو حد الفرية على الأنبياء، وصيانة لهم من ألسنة الفساق.

وروي أن رجلاً ذكر ذلك الخبر عند عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق؛ فكتب المحدث به وقال: «إن كانت القصة على ما في كتاب الله تعالى فما ينبغي أن نلتمس خلافها، وإن كان على ما ذكر، وكف الله عنها سترًا على نبيه؛ فما ينبغي إظهارها عليه»، فقال عمر: سماعي هذا الكلام أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

والقرآن الكريم قد وصف داود عليه السلام بمضفات هي غاية في السمو والرفعه وكمال الخلق وغير ذلك مما يقطع السنة من لا يتورعون عن التشهير يرسل الله تعالى والحديث عنهم بما لا يليق بهم.

صفات داود عليه السلام في القرآن الكريم

وهذه هي الصفات التي وصف بها القرآن الكريم داود عليه السلام.

الصفة الأولى:

وصفة بكونه «عبدًا له»، وهذا يدل على كماله له في عبوديته لمولاه، ولو اشتغل بشهوات نفسه ما كان كاملاً في عبوديته وما كان مستحقًا لوصفه.

الصفة الثانية:

قوله تعالى: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، والأيد القوة، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين؛ لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في الملوك الكفار، وما استحقوا بها مدحًا، إنما المستحق للمدح هو القوة في الدين.

وأيضًا أي قوة لمن لم يملك نفسه عن الفجور والقتل؟

الصفة الثالثة:

إنه وصف بكونه «أوابًا».

و«الأواب» هو كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكثير الرجوع إلى الله تعالى يستحيل صدور المعصية منه، ولو كان ما وقع منه حقيقة ما جعله الله خليفة في الأرض؛ لأن فعل القبائح لا يناسبها إلا الزجر والطرد .. قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وكذلك أخبرنا الله تعالى في كتابه بما أعده له من المثوبة العظمى جزاء طاعته لربه وامتثاله لأمره وصبره على هوى نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

قصة سليمان عليه السلام
وما أثير حولها من شبهات
الشبهات الواردة في حق سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ[1] الصَّافِنَاتُ[2] الْجِيَادُ[3] * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ[4] * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ[5] مَسْحًا بِالسُّوقِ[6] وَالأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١ ــ ٣٣].

بيان ما اشتملت عليه الآية الكريمة

المسألة الأولى:

قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١].

فهذه الآية الكريمة تدل على أن مشاهدة الخيل ألهته عن ذكر ربه، حتى روي أن الصلاة فاتته.

---

[1] – العشي: هو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب.

[2] – الصَّافِنَات: الخيل، جمع «صَافِنَة» وهي التي لا تقف على أربع، وإنما على ثلاث في رشاقة، وكأنها على أُهبة الاستعداد.

[3] – الجياد: جمع «جَوَاد» وهو السَّابِق، وقيل إنها الجياد السراع، وكان لها منظر رائق وجمال معجب.

[4] – تَوَارَت بِالْحِجَاب: أي استترت بما يحجبها عن الأبصار.

[5] – طفق: «طفق يفعل كذا» بدأ في الفعل واستمر فيه.

[6] – السوق: جمع «ساق» القدم.

الجواب: والصواب أن تقول إن رابط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه مندوب إلى النبي في الدين الإسلامي، فلما احتاج إلى الغزو، وجلس وأمر بإحضارها ومرورها أمامه، وذكر أنه لا يعبأ لأمر الدنيا، وحظ النفس منها، وإنما كان يحبها لأمر الله تعالى وطلبًا لتقوية دينه، وهو المراد من قوله: «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» [ص: ٣٢]، ثم أنه عليه السلام، أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض .. من ذلك المدح أمور:

الأول- تشريفًا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.

الثاني- أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك متواضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث- إنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيونها، فكان يمنحها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

قال الشيخ عبد الوهاب النجار[1]: هذا التفسير المذكور ينطبق انطباقًا موافقًا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات إلى سليمان عليه السلام.

[1]- قصص الأنبياء.

المسألة الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

فهذه الآية الكريمة تدل على أن شيئًا افتتن به سليمان عليه الصلاة السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، وهذا يقدح في عصمته.

الجواب: أصح ما قيل في فتنة سيدنا سليمان عليه السلام، ما ورد في الحديث الصحيح مرفوعا أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل" إن شاء الله"، فطاف عليهن فمل تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال "إن شاء الله" لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعين".

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، رواه البخاري سبع مرات، رواه مسند ست مرات ومرة واحدة معلقًا، ورواه مسلم في كتاب الإيمان بطرق متعددة.

وليس ببعيد على مثل سليمان عليه السلام أن يأتي مثل هذا العدد من النساء؛ لأن الرسل خصائص في مختلف الأحوال، وكلها ترجع عند التحقيق إلى القرب والطاعات بما يعود على رسالتهم بالخير والنجاح، وقصد سليمان من غشيان نسائه في تلك الليلة كما هو واضح من منطوق الحديث القربة والطاعة بإنجاب فرسان يقوي بهم دينه.

واختار هذا الرأي العلامة أبو السعود وتبعه العلامة الألوسي، وكذلك اختاره صاحب المواقف، وهذا هو الصواب.

إذا عُلم هذا فما قيل خلافه فهو من الحكايات الخيالية التي تتعارض ونص القرآن ومكانة سيدنا سليمان عليه السلام.

ولم تكن محنة سليمان سوى أنه لم يستثن «إن شاء الله»؛ وذلك لما استقر به من الحرص وغلب عليه من التمني، وذلك بالنسبة إليه خلاف الأولى، وقد عدَّ ذنبًا في حقه؛ فاستغفر ربه وأناب إليه. وإلى هذا ذهب المحققون كالقاضي عياض وغيره.

المسألة الثالثة:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: ٣٥].

فهذه الآية الكريمة يفهم من ظاهرها أن سيدنا سليمان ارتكب ذنبًا حتى طلب المغفرة.

الجواب: إن الإنسان في حاجة دائمًا إلى المغفرة في كل وقت، وإن لم يكن لذنب أتاه كما قال رسول الله ﷺ: «إني أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»، فلا يبعد أن يكون قول سليمان «قال رب اغفر لي» من هذا المعنى ا.هـ الفخر الرازي.

المسألة الرابعة:

قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

فإن قيل: إن قول سيدنا سليمان عليه السلام هذا شعور بالحسد والأنانية وهذا لا يليق أن يصدر من مثله.

الجواب: في هذه المسألة وجوه:

الوجه الأول:

إن الملك هو القدرة، فكأن المراد: أعطني من القوة والقدرة على أشياء لا يستطيع غيري عليها ليسير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة رسالتي.

والدليل على هذا الرأي أن الله تعالى قال عقبه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، فتكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته؛ فكان قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، أي لا يقدر أحد على معارضته.

الوجه الثاني:

إنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر؛ فسأل ربه ملكًا لا ينبغي أن ينتقل منه إلى غيره، أي لا يمكن، وذلك كتسخير الريح مثلاً.

الوجه الثالث:

إن الاحتراز من طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها مع عدم القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل.

الوجه الرابع:

من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب؛ لأن هذه اللذات حاضرة، وسعادات الآخرة نسيئة، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة، فقال سليمان: أعطني يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر، حتى إني أبقى مع القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى.

الشبهات الواردة في قصة يونس عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

بيان ما اشتملت عليه الآية

الشبهة الأولى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا﴾

قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير: مغاضبًا لربه عز وجل، واختاره الطبري واستحسنه المهدوي.

وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح.

والمعنى: مغاضبًا من أجل ربه، كما تقول:غضبت لك من أجلك"، والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى، فمضي يونس عليه السلام على وجهه مضيّ العبد الآبق حين طال عليه أمرهم واشتد عنادهم وإصرارهم ولم يجد لدعوته إياهم سبيلاً إلى قلوبهم؛ فكان منه ما كان من تركهم، مع ملاحظة أنه لم يكن مأمورًا بالبقاء معهم، لكن لما كان الأولى الصبر وعدم الخروج من عندهم حتى يؤذن له بذلك؛ كان ما حصل منه في الواقع ليس ذنبًا، بل تركًا للأولى من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

إذن اعلم هذا، واعلم أن خروجه لم يكن هروبًا من تبليغ رسالة ربه كما يتوهم البعض لصغر سنه وحداثة عهده بالنبوة، وإلا لو جاز في حقه ذلك لجاز في حق غيره من المرسلين، ولا تعتقد أن أحدًا من المسلمين يجوز مثل هذا على أحد من الرسل .. قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فهم في العصمة سواء.

وقيل إن ما حدث منه كان قبل النبوة وإن إرساله كان بعد التقام الحوت له ونبذه.

قال القاضي عياض في «الشفاء» ج ٣ ص ٩٧: قد روى ابن عباس أن إرسال يونس أنما كان بعد نبذ الحوت له، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥ ــ ١٤٧].

فتكون هذه القصة إذن قبل نبوته، وأن يونس عليه السلام ظن أن الله تعالى لا يحتم عليه الرجوع إليهم، وتأول الأمر على أنه أمر إرشاد ولا إثم ولا معصية في مخالفته، إلا أن الأنبياء مؤاخذون بأدنى شيء يصدر منهم؛ وذلك لعظم معرفتهم بربهم، وإن كانت غير ذنوب في الحقيقة.

قال العلامة القرطبي: «قد يؤاخذ الوزير على ما يثاب عليه السايس»؛ وذلك لعظم أمر الوزير بخلاف من هو أدنى منه من عامة الشعب.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

تقريرها: كيف ينسب يونس العجز إلى مولاه؟

الجواب: ذكر جمهور العلماء أن معناه: لن نضيق عليه بإلزامه بالعودة إلى قومه واستمراراه معهم، بل سنوسع له ونرفع عنه أمر التكليف بالرسالة.

قال الحسن: هو من قوله تعالى: ﴿اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢]، أي يضيق، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧].

قال العلامة الفخر الرازي: قلت وهذا الأشبه بقول سعيد بن جبير والحسن: قَدَرَ قَدْر، قَتَرَ قَتْر، أي ضيَّق، وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي.

فائدة..

قال تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال ابن عباس وقتادة: المراد بالظلمات ظُلمه بطن الحوت وظُلمه الليل وظُلمه البحر.

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام هوى إلى قرار قاع البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى؛ فنادى في

الظلمات ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وروي أن يونس عليه السلام لما سمع تسبيح الحيتان في البحر سجد.

الشبهة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿إني كنت من الظالمين﴾

تقريرها: كيف نسب يونس نفسه إلى الظلم والأنبياء معصومون منه؟

الجواب: معناه فيما خالف من ترك المداومة في نشر الرسالة بين قومه وعدم صبره عليهم وخروجه قبل أن يأذن له مولاه بذلك، ولم يكن ابتلاع الحوت ليونس عقوبة له على ما فرط؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصًا وتطهيرًا. ذكره الماوردي.

وقيل: إني كنت من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب.

وقال الواسطي في معناه: نزه ربه عن الظلم وأضافه إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا، ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، إذا كان السبب في وصفهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه.

فكان من نتيجة إخلاصه لربه ومداومته تسبيحه وذكره أن حفظه الله ونجاه .. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

الشبهات الواردة في قصة زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٧ ــ ٩].

الشبهة: هل كان زكريا عليه السلام شاكًّا في قدرة الله؟

الجواب: لو كان زكريا عليه السلام شاكًّا في قدرة الله لكان غير عاقل لما سأل ربه ذلك حيث يطلب أمرًا مستحيلاً.

وذلك أن زكريا عليه السلام لم يسأل ربه أن يهب له ولدًا من جهة الولادة، وإنما سأله أن يهب له ولدًا من عنده فقال: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» [مريم: ٥]، وقال تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وإنما سأل ذلك عندما أخبرته السيدة مريم بأن رزقها بابنها من عند الله؛ فسأل ولدًا من عنده، فلما بشرته الملائكة بالولد سأل كيف ذلك يحدث ذلك مع كبره وعقر امرأته؟ فقال: كَذَلِكَ يَفْعَل اللهُ مَا يَشَاء.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، التعجب لا الشك أو الإنكار؛ إذ من كان في منزلة زكريا عليه السلام لا يتطرق إلى نفسه شيء من ذلك؛ لأنه عارف بالله وبصفاته.

ما أثير من شُبهات حول عيسى عليه السلام

الشبهة الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦].

تقريرها: أن يقال إن كان عيسى عليه السلام قال هذا الكلام فالإشكال قائم، وهو دعوة الناس إلى عبادته والاعتراف بألوهيته بل ألوهية أمه، وإن كان لم يقل هذا الكلام فالاستفهام يكون عبثًا.

الجواب: إنه عليه السلام ما قال ذلك، وللاستفهام فائدة، وهي تفريغ من ادعى ذلك من النصارى.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

الجواب: المقصود من هذا الكلام تفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية وترك الاعتراض وتحقيق معنى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

تناقض أهل الإنجيل في عصمة المسيح

من غرائب الأمور أن أهل الإنجيل الذين جوزوا صدور الذنوب من الأنبياء، بل نسبوا إليهم كما سبق الكثير من المعاصي والجرائم في قصص وروايات مختلفة، ونفوها عن السيد المسيح عليه السلام لأنه الوحيد في نظرهم المعصوم دونهم؛ لأنه جاء ليخلص البشرية من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ومع هذا نجد أن إنجيلهم الذي يقدسونه ويؤمنون به ينسب إلى السيد المسيح عليه السلام من الخطايا ما لا يليق بمكانته ويتنافى مع عصمته، ويتناقض مع أقوال الإنجيليين، وإليك ما ذكره الإنجيل ليكون دليلاً على صدق ما نقول:

ورد في الباب السابع من إنجيل لوقا عدد ٣٣ وما بعده: «لأنه جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا، فتقولون به شيطان، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فتقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة...».

إلى أن قال:

«... وسأل واحد من الفريسيين أن يأكل معه، فدخل بيت الفريسي واتكأ، وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة وعلمت أنه متكئ في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبل قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنها بالطيب، فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك تكلم في نفسه قائلاً لو

كان هذا نبيًا لعلم من هي المرأة التي تلمسه (وما هي)، إنها خاطئة، فأجاب يسوع وقال له: يا سمعان، عندي شيء أقوله لك؛ فقال: قل يا معلم. كان لمداين مديونان، على الواحد خمسمائة دينار، وعلى الآخر خمسون، وإذا لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعًا، فقل أيهما يكون أكثر حبًا له؟ فأجاب سمعان وقال: أظن الذي سامحه بالأكثر، فقال له: بالصواب حكمت.

ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان: أتنظر هذه المرأة؟ إني دخلت بيتك وماء لأجل رجلي لم تعطِ، أما هي فقد غسلت رجلي بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها.

قبلة لم تقبلني، وأما هي فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلي.

بزيت لم تدهن رأسي، وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي..

من أجل ذلك أقول لك: قد غُفرت خطاياها الكثير لأنها أحبت كثيرًا، والذي يغفر له قليل يحب قليلاً، ثم قال لها: مغفورة لك خطاياك».

فليتأمل العقلاء في هذا الموقف الذي لا يرضى به رجل من أوسط الناس، فضلاً عن الرسول الذي جاء ليحارب الرذيلة.

فنحن نراه أولاً قد سمح للمومس بأن تضع فمها على جسمه وتضع وجهها على قدميه كي تمسح الدموع بشعر رأسها.

وثانيًا إنه قرظها أحسن تقريظ، وجعلها مع كثرة جرائمها أفضل ممن ليس بمجرم؛ لأن المثل الذي نقله الإنجيل عن عيسى معناه أن الذنوب

القليلة تستدعي غفرانًا يناسبها، وذلك يستلزم أنه يحب المجرم من غفر له حبًا قليلاً، أما الذنوب الكثيرة فإنها على العكس من ذلك.

وعلى هذا يكون صاحب الجرائم الكثيرة أكثر حبًا لربه المغفور من صاحب الجرائم القليلة، وصاحب الجرائم القليلة أكثر حبًّا لربه من الذي لا يجرم أصلاً*.

والنتيجة المنطقية البديهية لهذا الكلام أن يسوع يحرض على الإباحة والفوضى، ويقول للناس لا مانع من أن ترتكبوا الفاحشة ويغفر الله لكم فتحبوه كثيرًا بنسبة ما غفر لكم من الجرائم، فهل هذا الكلام يقوله رسول من عند الله حقًا؟

ومع هذا، ألم يقل المسيح أن النظر إلى المرأة الأجنبية جريمة من الجرائم حتى قارنها بالزنا.

ومن وصايا الإنجيل التي جاء بها القرآن على الوجه الصحيح ما ورد في نفس ذلك الإصحاح، وهو ما قال لأخيه "يا أحمق" يكون مستوجبًا نار جهنم، وقوله قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزنِ، وإما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك

* وإن كان شرعنا الحنيف ما يدعم هذا المعنى، والذي يؤكد أن الله يفرح بتوبة العبد المخطئ أشد من فرح العبد بتوبة نفسه، حتى أن النبي ﷺ قال: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»، وقال أيضًا ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».. الناشر.

اليمني تعثرك فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم.

وإذا كان الله تعالى عنده فكيف يبيح لنفسه أن تلامسه المرأة الزانية هذه الملامسة المعيبة، وهو شاب شريب خمر، فهو من حيث ناسوته في زعمهم عرضة للتأثر بها والافتنان بجمالها، أليس ذلك دليل على جهالة الإنجيليين وعدم تدبرهم فيما يكتبون؟

وأيضًا إذا كان السيد المسيح قد غفر خطايا المرأة الزانية بدون أن تعلن توبتها، وقال لها أنت تحبينني أكثر من الطاهرين المطهرين، فما هي وظيفته إذن التي أرسل من أجلها؟ كأنه ما أرسل إلا ليعرف نفسه للناس ويقول لهم: اجرموا كثيرًا وأنا أغفر لكم فتحبونني كثيرًا، وذلك منتهى الفساد الذي يتنزه عنه قدر الأنبياء والمرسلين.

وبعد، فإذا كان السيد المسيح يغفر الفاحشة بكلمة، فما الذي حمله على الانتحار وإعدام نفسه المحرم في كل الشرائع وذوي العقول المستنيرة من أجل خطيئة آدم التي هي في الواقع ليست بخطيئة، أفما كان الواجب أن يغفر هذه الخطيئة وغيرها بكلمة كهذه وينتهي الإشكال؟ ولكن ماذا نقول لقوم طبع الله على قلوبهم؟

وورد في الباب الحادي عشر من إنجيل يوحنا ما نصه:

«... وكان إنساناً مريضًا، وهو لعاذر من بيت عنيا، من قرية مريم ومرنا أختها، وكانت مريم التي كان لعاذر أخوها مريضًا هي التي دهنت

الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها، فأرسلت الأختان إليه قائلتين: يا سيد، هوذا الذي تحبه مريض، فلما سمع يسوع قال هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله، ليتمجدن الله به. وكان يسوع يحب مرنا وأختها ولعاذر.... إلخ».

فلم يقتصر الإنجيلي على أن عيسى غفر لهذه الزانية خطاياها، بل صرح بأنه أصبح كلفًا بها ومحبًا لها هي وأختها وأخيها، ويا ليتهم قالوا إنها تابت وأنابت إلى ربها وأصبحت من العابدات القانتات، كلا، بل تركوها على حالها من الفسوق والعصيان، إن حسابهم إلا على الله.

وأغرب من هذا أن يوحنا ذكر في الباب الثالث عشر أن عيسى كان يحب أحد تلاميذه الشبان، وكان ينام في حضنه ويبكي على صدره، ولم يدرِ أن ذلك موجب للريبة إلى أبعد مدى.

وورد في الباب الثامن من إنجيل لوقا أن عيسى كان يسيح في الجهات يبشر بملكوت الله، هو وتلاميذه ومعهم نساء كن قد شفين من أرواح شريرة، ومنهن مريم المجدلية التي خرج منها سبعة شياطين وبونا امرأة خوري وسوسنة وأخريات كثيرات.

ما شاء الله، نبيون ونبيات وأوليات، والكل يسبحون في ملكوت الرب، يكرزون بإنجيل الله .. ألم يفقه هؤلاء الإنجيليون أن ذلك لا يجوز في دين المسيح؟

وكيف يختلط الشبان بالشابات ليلاً ونهارًا في الحل والترحال، وهم يشربون الخمر المثيرة للشهوة المغتالة للعقول، مع أن السيد المسيح يجعل النظر إلى الأجنبية منكرًا، لعلهم كانوا في حاجة إلى هؤلاء النسوة تبرر اختلاطهم!

وأظرف من هذا أن كل رفقتهم كن من النساء صاحبات الأرواح الشريرة (الزار)، فكان ينقص هؤلاء الرسل الكرام أن يصحبوا في رحلاتهم "كوديات"، رؤساء مزار كي يريضن النساء اللاتي هجرن بيوتهن واحتملن مشاق السفر في سبيل الله!

هذا قليل من كثير ملأى بها كتبهم التي يدينون بها، وفيها العجب العجاب.

وأختم حديثي بذكر تلك الخرافة المضحكة التى روتها التوارة في آخر الباب الثاني والثلاثين من سفر التكوين، من أن الله تعالى تمثل ليعقوب في طريقه بصورة إنسان وصارعه من أول الليل إلى طلوع الفجر، فلم يقدر الله على يعقوب، وأخيرًا كسر الله فخذ يعقوب، ومع ذلك لم يستطيع أن يفلت الإله من يده، فقال له: أطلقني؛ فقد طلع الفجر، ثم قال له الإله: ما اسمك؟ فقال: اسمي يعقوب، فقال له من الآن يكون اسمك إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الناس ومع الله فغلبت، وكان يعقوب يفخر بذلك ويقول قابلت الله وجهًا لوجه!

أليس بعد هذا القول هذيان؟

خاتمة الكتاب

حمدًا لمن أنعم علينا بنعمة الإسلام، وجعلني من حملة رسالته ودعاة دينه وحماة تراثه.

والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد.

فقد تم هذا الكتاب بعونه تعالى وتوفيقه، ونجز ما قصدنا بحول الله وقوته، فإن وافق الصواب فالمنة لله العلي الكبير، وإلا فالعبد محل الخطأ والتقصير، ولا سيما من هو في مثل حالي.

واعتذر لذوي الألباب عن التقصير الواقع في هذا البحث، وأن ينظروا إليه بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، وما كان من خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنف من الهفوات أو ينجو مؤلف من الثغرات.

وكما قال ابن مالك: أعاذنا الله من حاسد لسد باب الإنصاف، ويصد عن جهل الأوصاف، وألهمنا شكرا يقتضي توالي الآلاء.

وكما قال في حرز الأماني:

فيا عاطر الأنفاس أحسن تأولا

والله أسأل أن ينفع به كل من قرأه، وأن يهدي المارقين عن الدين إلى صراطه المستقيم.

ووافق الفراغ من تبييضه يوم الجمعة في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق السادس والعشرين من شهر يونيو سنة سبعين وتسعمائة وألف ميلادية*.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد سيد أحمد بنوفرى
من علماء الأزهر الشريف

* يعني بهذا التاريخ الفترة التي كتب فيها الجزأين (عصمة الأنبياء، عصمة محمد).. الناشر.

الفهرس

تقديم الناشر ٣

المؤلف في سطور ٧

تقديم خاص..... ٩

المقدمة ١١

تمهيد ١٣

آراء العلماء ١٦

في عصمة الأنبياء..... ١٦

القسم الأول:..... ١٦

القسم الثاني: ١٧

القسم الثالث: ١٨

القسم الرابع: ٢٣

آراء العلماء فى وقت العصمة ٢٤

ما يقوله العلماء في وقت عصمة الأنبياء ٢٤

• الشبهة الأولى: ٢٧

الشبهة الثانية: ٢٧
• الشبهة الثالثة: ٢٧
• الشبهة الرابعة:..... ٢٨
• الشبهة الخامسة: ٢٨
• الشبهة السادسة: ٢٨
• الشبهة السابعة: ٢٩
الأجوبة على الشبهات السابقة ٢٩
قصة نوح عليه السلام..... ٣١
آراء العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ ٣٢
الرأي الأول:..... ٣٢
الرأي الثاني: ٣٣
كيف نادى نوح ابنه مع كفره وبعد أن حلَّ به العذاب؟..... ٣٤
الجواب الأول: ٣٤
الجواب الثاني: ٣٤
الجواب الثالث: ٣٤

شبهات، والرد عليها..... ٣٦
مطاعن التوراة في نوح عليه السلام..... ٣٧
قصة هود عليه السلام..... ٣٩
هود عليه السلام ٣٩
الشبهات الواردة في حق إبراهيم عليه السلام..... ٤١
الشبهات الواردة في حق إبراهيم عليه السلام..... ٤١
المناظرة التي وقعت بين إبراهيم والملك ٤١
رؤية إبراهيم الملكوت ٥٠
شبهة إشارة إبراهيم إلى الكواكب ٥٣
شبهة: هل حصل كذب من إبراهيم؟ ٥٧
كيف استغفر إبراهيم لأبيه الكافر؟..... ٦٠
فائدة: ٦٢
ما نسبته التوراة إلى إبراهيم؟ ٦٣
الشبهات الواردة في حق لوط عليه السلام ٦٧
قصة لوط عليه السلام ٦٧

قـــوم لـــــوط ٦٧
الشبهات الواردة في حق لوط..... ٧٠
كيف عرض لوط بابنتيه لأن تؤتى بهما الفاحشة؟..... ٧٠
تناقض التوراة في أمر لوط..... ٧٢
الشبهات الواردة في قصة يوسف عليه السلام ٧٤
ما هو البرهان الذي رآه سيدنا يوسف؟..... ٨١
شبهة «السجود ليوسف عليه السلام» ٨٣
شبهة «اذكرني عند ربك» ٨٥
شبهة «طلب أخيه وحبسه»..... ٨٦
شبهة «إلصاق تهمة السرقة بأخيه» ٨٧
شبهة «سكوت يوسف مدة على حزن أبيه»..... ٨٨
شبهة «كيف طلب يوسف الولاية من قبل الظالم؟» ٨٨
الشبهات الواردة في حق يعقوب عليه السلام ٨٩
الشبهة الأولى: الترجيح ٨٩
الشبهة الثانية: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾..... ٩٠

الشبهة الثالثة: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ ٩٠

الشبهة الرابعة: البكاء ٩١

مطاعن اليهود في يعقوب عليه السلام ٩٣

الشبهات الواردة في حق أيوب عليه السلام ١٠١

شكوى أيوب عليه السلام ١٠٢

الضُّر الذي أصاب أيوب ١٠٤

مسَّـــنـــي الشيطان ١٠٤

وساوس الشيطان ١٠٥

ما نوع المرض الذي أصاب أيوب؟ ١٠٦

عطاء الله لأيوب عليه السلام ١٠٩

حِلف أيوب عليه السلام على زوجته ١١١

علاج أيوب عليه السلام بالدواء الإلهي ١١١

الشبهات الواردة في حق موسى عليه السلام ١١٣

موسى رسول بنـــي إسرائيل ١١٣

الشبهات الواردة في حق موسى عليه السلام ١١٦

شبهة: قتل موسى للقبطي. ١١٦
شبهة ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ١١٨
شُبهة اعتذَارِه عَن التَّبلِيغ..... ١١٨
شبهة السَّحَرة ١١٩
شبهة: «فأوجس في نفسه خيفة موسى» ١١٩
شبهة: الأجر على صنع المعروف..... ١٢٠
شبهة: موسى وابنة شعيب ١٢١
شبهة: كيف ألقى موسى الألواح؟..... ١٢١
شبهة اعتدائه على أخيه..... ١٢٣
قصة شعيب عليه السلام..... ١٢٦
الشبهات الواردة في حق شعيب عليه السلام..... ١٣١
الشبهة الأولى: ١٣١
الشبهة الثانية: ١٣١
الشبهة الثالثة: ١٣٢
الشبهات الواردة في قصة داود عليه السلام ١٣٣

بيان ما اشتملت الآيات من مسائل ١٣٤
من هم الخصم الذين تسوروا على داود المحراب؟ ١٣٤
فتنة داود ﴿إِنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ١٣٥
صفات داودعليه السلام في القرآن الكريم ١٣٨
الصفة الأولى: ١٣٨
الصفة الثانية: ١٣٨
الصفة الثالثة: ١٣٨
قصة سليمان عليه السلام..... ١٣٩
الشبهات الواردة في حق سليمان عليه السلام..... ١٣٩
بيان ما اشتملت عليه الآية الكريمة ١٣٩
الشبهات الواردة في قصة يونس عليه السلام..... ١٤٥
بيان ما اشتملت عليه الآية ١٤٥
الشبهات الواردة في قصة زكريا عليه السلام ١٤٩
ما أثير من شُبهات حول عيسى عليه السلام ١٥١
الشبهة الأولى: ١٥١

الشبهة الثانية: ١٥١

تناقض أهل الإنجيل في عصمة المسيح ١٥٢

خاتمة الكتاب ١٥٩

الفهرس ١٦١